أسيراتُ الحياة

الطبعة الأولى:
1441 هـ / 2020 م

اسم الكتـــاب: أسيراتُ الحياة
المـــؤلــــف: ريحانة رفيق
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 168 صفحة
عدد المـــلازم: 10.5 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقــم الإيـــداع: 25833 / 2019
الترقيم الدولي: 1 - 795 - 278 - 977 - 978 :ISBN

التوزيع والنشر:

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

ريحانة رفيق

أسيراتُ الحياة

رواية

دار البشير
للثقافة والعلوم

الإهداء

إلى كلّ روحٍ مرّتْ بي وخلّدتْ ذاتها بداخلي،
فسمحتْ لي أنْ أنسِج
مِن حريرِ خيوطِها غزلًا ناعمًا.. ومن نورِ حضُورها
فيّ حرفًا ساميًا..
فروحي بعطاءات المولى لها؛ عنهم راضية.

وإلى أرواحٍ لم أعرِفْها من قبْل، علّي بروايتي هذه
أخلِّدُ اسمي
في نُقطةٍ صغيرةٍ من القلب، أو كنجمةٍ لامعةٍ تُنيرُ
سماءَ الذّاكرة.

ريحانة رفيق

(١)
أرجوحتي

والليلُ يُرخي سدولَه على قريتنا؛ قريةِ «أبي زيد» في إحدى ليالي الصّيف، تسابقتِ النّجماتُ لتتمَوضع كُلّ واحدةٍ منها في المكانِ الذي يليقُ بها، واختارتْه لنفسِها على صفحةِ سماء قريتنا الصّافية، أعلى شجرةٍ معمّرةٍ تضرِبُ بجذورهـا في عُمقِ الأَرْضِ مُنذ عشرات السّنين، في طريقٍ ناءٍ بينَ قريتِنا والحقولِ المُجاوِرة، ربطتُّ في فرعِها الأسمَك والأقوى على حمِل الأوزان؛ حبلًا، وصيّرتُ مِنْهُ أُرجوحةً بقاعدةٍ خشبيّة، وجدتُها ملقاةً بالجِوار، زيّنتُها ببعضِ زهراتٍ من الياسمين الشاميّ الفوّاح؛ علَّها تُنبِؤ المارّ من هُنَا بأَنَّ أُرجوحتي أنثويّة الطّابع والمزاج، مضيتُ بعدَها عائدةً إلى المنزل، وقدماي تُسابِقُ الرِّيح، فقريتُنا صغيرة وسينتشُر خبرُ الأرجوحةِ كانتشارِ النّار في الهشيم؛ حيثُ أنِّي ما أردْتُ بأن يُهتكَ سترُ هديّتي لنساءِ القرية المُتعَبات المكافحات يوميًّا.. والمُثابراتِ كُلّ صباحٍ في عمليّةِ جلبِ الماء من فكّي النّبع وملْئِه في جِرارٍ مُتهالكة، وحمْلها فوق رؤوسهنّ وهُنّ يتبختَرنَ في مشيتهنَّ كالغزلانِ في البرية، إلّا أنّهنّ أبعد ما يكُنّ عن انطلاقتِها وحُرّيتها في ربوع البراري. ولم أكُن كذلك لأتحمّل

لومَ رجالِ القرية إنْ هُم لَمْ يستحسِنوا هكذا خرقًا لعاداتٍ نشأنا جَمِيعًا عليها، فالسّائدُ في القريةِ أنَّ بلوغَ سِنّ العاشرة للبنات علامةُ نضجٍ وتوقّفٍ عن اللّعب والمُتعةِ خارج المنزل.

لقد كانَ جُلّ تفكيري ساعةَ تعليقِها هنا بالتّحديد، أنْ يتخفّف النساء على الطَّريق من حِملهِنّ لبعضِ الوقت، فيمتطينَ صهوةَ أرجوحتي المتواضعة بفرحٍ، ليُحلّقنَ بين سماءٍ، ما عُدنَ يرفعنَ رؤوسهنّ إليها من عِظمِ العبءِ والقيدِ الذي يكبّل أعناقَهُنّ، وكذا الأوزان التي تثقلُ رؤوسهُنّ كما تُشقي أرواحَهُنّ؛ وبين تربتها الرّمليّةِ التي لطالما غاصتْ فيها أقدامهُنّ، فرُبّما بالفكرةِ وتنفيذها يسعدنَ.

في صباح اليوم التّالي، ادّعيتُ مروري بوعكةٍ صحيةٍ لكي لا أشاركَهُنّ رحلةَ الشّقاء تلك، والتي نذهبُ إليها متجهّماتٍ ونعود وكأنّ على رؤوسنا الطَّيْر، وجلسْتُ منتظِرةً عودتهُنّ بفارغِ الصّبر. وكما توقّعت تأخّرتْ الرّفيقاتُ على غيرِ عادتِهنَّ في العودةِ، فجارتي الأربعينيّةُ وعدَتْ بالمرور حال عودتِها، ولكنْ لم يمضِ من الوقتِ الكثير حتّى تهادى صوتُها إلى مسامعي وهي تصرخُ بسعادةٍ بالغةٍ من خارج سُور منزلنا الطّينيّ، فرَحٌ كبيرٌ يحملهُ صوتُها، تراقصت لهُ حتَّى جزيئاتُ الهواء، والتي أنصتَتْ إليها بفضولٍ قبل أن يصِل أُذُنيّ، مُنادية اسمي: «يا أمّ محمد.. يا أمّ محمد»، فينتقلُ حماسها الصّوتيّ إلى طَرقاتٍ بالكفّ على الباب تنتبِه لَه كلّ الحواسّ، وحالَ

فتحي للبابِ تدلُفُ إلى صحن الدّار ولا تنتظِر إلقاءَ التحيّة الروتينية المعتادة سلامًا باليد وبالقُبلاتِ المطبوعةِ على الخدّين، بل تركتْ لأقدامها حريّة الولوجِ للسّاحة، تقذِف بِجسدها الممتلئ على الكنب الخشبيّ أسفل النّافذةِ والمغطّى بقماشٍ مبطّن بالأسفنج عليه بعضُ الوسائدِ الموزّعةِ بعنايةٍ لتُريح الجالسَ عليها قدْرَ المستطاع. تُكملُ جارتي حديثَها وهي تتحدّثُ بحماسةٍ بدتْ ظاهرةً في حركةِ يديها ونبرةِ صوتها المبحوح:

– فاتكِ نُصفُ عُمرك، يا أمّ محمد! لو أنّكِ كُنتِ معنا اليوم، ورأيتِ بأُمّ عينك ما حدث في طريقِ العودة من النّبع، ونحنُ نحملُ فَوْقَ رؤوسنا الجِرار المملوءةَ بالماء لصحّ بدنُكِ من حينهِ ولَتقافزتِ كالظّبيةِ في خفّةٍ ورشاقة إلى أن تصلي إلى المنزل!..

حينَها ما كانَ لي على ابتسامتي من حُكم، وهي تِلْكَ الجامحة الثّائرةُ ترفعُ ما تشاءُ من عضلاتِ وجهي وتبسِطُ ما تشاءُ منها، لترسُم لوحةً استثنائيّةً من بهجةٍ عارمةٍ اهتزّت لها جوارحي وما أبقتْ.

أكملت «أمّ فايز» حديثَها دون انقطاعٍ؛ فَشُلَّ لِساني عن مقاطعتها بأسئلةٍ استفساريَّة توحي لها بجهلي بأسبابِ هذه الضّجة التي أحدثتها، وحقيقة أُرجوحتي المتواضعة التي أقمتُها هُناك، فأنصتُ لها وهي تستطرِدُ دون أنْ أُقاطعها:

- لقد وجَدْنَا أُرجوحةً خشبيةً مقيّدةً عند فرع شجرةٍ معمرةٍ على جانبِ الطريق، كانت مخفيّةً، إلّا أنّ جارتنا «سامية» صادتْها بقوَّةِ ملاحظتِها التي تستطيعُ بها انتشالَ الإبرة من كومةِ قشّ، وبعينيها الثّاقبتين؛ ما لبِثتْ أنْ ألقتْ بجرّة الماء على الأَرْضِ، وراحتْ تجري بين الشّجر، ممّا أثار استهجانَنا وغضبنا، وإذ بها تصيحُ بصوتٍ عالٍ وتضحك، ويعلو صوتُها مناديًا علينا بشكلٍ هستيري دون انقطاع. ساعتها؛ نظرنا إلى بعضنا البعض في حيرةِ مَن لا يعرفُ جوابًا، نهُزّ الرأسَ ونتساءل فيما بيننا: ما الذي حدث لسامية؟! وهل يا تُرى جُنّتْ أم أصابَها مكروهٌ؟! ولمّا لم نستطِع تحديده، تركنا بدورِنا جِرارنا على الأرض لاهثينَ خلفها لنرى ما بها، وإذْ بها تعتلي أُرجوحةً وتتأرجحُ بها يُمنةً ويسْرة، وتُطلقُ ضحكاتها في الهواء، لنجِد لسماعِها صدًى يهُزُّ قلوبنا غيرةً، فأصبحنا نتسابق لأخذ الدّورِ منها.

نحنُ نسوةُ قرية «أبي زيد» المُرهقات المُتعَبات من كُلّ ما هو حولنا بدّلتنا أُرجوحةٌ، لترسُمَ على وجوهنا تجلِّياتِ البهجة التي غادرتْنا منذ زمن، فرحةٌ باللّعبِ غمرتْ قلوبنا وكأنّ رداء الطفولةِ أصبح يكسو بعُنفُوانِه أرواحَنا وأجسادَنا من جديد، ولكنّنا استغربنا تعليقَها ها هُنا، ومَن ذا الذي فعل هذا؟ وهل سيَسمحُ لنا أزواجُنا بالتّأرجُح عليها بما أنّها بعيدةٌ عن عيون الرّجال وانتقاداتهم؟ تحدّثي يا «أمّ محمد»، قولي شيئًا.. ماذا دهاكِ، لم تنبسي ببنتِ شفةٍ منذُ دخولي!

وهاأنذا أنصِتُ وأُنصتُ لها، وفِي العقلِ دوّامـاتٌ تتقاطعُ وتتشابكُ، تتراقص بتناغُم حينًا وتتعاركُ كسعفِ النخيل حين تضربُه الرّيحُ بسوطها فيتمايلُ ثمِلًا في ثوانٍ معدودات، ولكن حين عمّ الهدوء جنباتِ المكان من جديد، ولاحظتُ عيونَ «أمّ فايز» جاحظةً تملؤها التساؤلات، إذ بي أُجيبُها دونما شعور:

- وهل تركتِ لي وقتًا لأتحدّث! بل هل أخذتِ أنت نَفَسًا واحدًا من حين هبطّتِ عليّ؟ لسانُكِ مازال يُثرثِر وكأنّكِ القَدَر يقع على عَجل، ومن ثَمَّ نبحثُ عن طريقة للتناغم معهُ وتقبُّلهُ من بعد الصّدمة! تعالت على إثرها ضِحكةٌ مشتركةٌ ما عرفتُ أيُّها لي وأيُّها لها.. وحين هدأتْ ضحكاتنا أردفْتُ قائلةً:

- ولكنْ بصراحة، أبْهجتِ قلبي بحكايتك هذا الصَّباح، فهؤلاء النِّسوة يحتجنَ لوقتٍ يقضينهُ للتّرفيهِ والتّسريةِ عن أنفُسِهنّ، وقتٍ يستنشِقنَ فيه الهواءَ العليل فتختبِئُ نسمةٌ عطِرةٌ بين شعورِهِنّ والحجاب، نسمةٌ تهَربُ لتعبثَ برموشِهنّ فتُقسِمُ بالله أنْ لا عودة، أو ربّما نسمةٌ تذوبُ على شفاهِهنّ كالسُّكر في الشّاي، وتُخلّفُ عليها ضِحكةً لا تغيبْ، هنّ يحتجنَ إلى الطّيران مثل الفراشات والعصافير، والله إنّهُنّ في أشدّ الحاجة لهذا كُلّه! وردًّا على سؤالكِ إنْ كان أزواجنا سيقبلون به أم لا.. ومَن ذاك الذي تجرّأ على فعلةٍ كهذه؟ فأنا أراهُ ليس مهمًّا في الوقتِ الحاليّ، المهمّ أن تبقى الأُرجوحةُ هناك كسببٍ

لسعادةِ نساء القرية يا حبيبتي، ورأيي- وأعرفُ أنّكنّ تثقنَ به- أنْ لا تُخبِروا الرّجال عن الأرجوحة، وبجميع ما حدث اليَوْم، حتَّى نجتمع سويًّا على قولٍ فصلٍ فيه. هيَّا اذهبي سريعًا وأخبريهِنّ قبل أن ينتشر الخبرُ في القرية!

ما كانَ من أمّ فايز إلّا أنْ تُلوِّح بكفّ يدِها اليُمنى فاردةً أصابِعها ومُباعدةً بينها وهي تركُضُ نحو الباب قائلة:

- ما شاء اللهُ على تلك القوّة التي تتميّزين بها دونًا عن جميع نسائِنا، فأنا لم أركِ يومًا تستسلمينَ أمام قناعاتك.. سأمضي وأخبرهُنّ حالًا، في أمان الله يا أمّ محمد.

أغلقتُ البابَ خلفها، وبدأتُ أعدُّ السّاعات كي أصِلَ إلى تلك اللّحظة التي أشاركهُنّ فيها صباحًا فرحة امتطاءِ الأرجوحةِ والتّحليقِ بعيدًا عن كُلّ قيد، ولِمَ لا.. وأنا ابنةُ الأربعين، وتتمثّلُ فيّ أجملُ مزايا النِّسَاء، وبما أنّي منذُ نعومةِ أظفاري ما ارتاحَ لي بال.. ولا هدأ لي جفنٌ، فالحروبُ والفراقُ والنّواحُ على الشُّهداء والانتقالُ من بلدةٍ إلى بلدةٍ مُجاورةٍ بحثًا عن الأمان، هو طابعُ النّساء في بلداتِ فلسطين المنكوبةِ عبرَ التّاريخ؛ كانَ لزامًا علينا خرقٌ للعادةِ واستعادةُ طفولة القلبِ ولو لبعض الوقت، وهاأنذا أُوَزّعُ بعضًا منها على كُلّ قلبٍ نبض بِجواري، فالأسعدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ بسببهِ النَّاسُ تسعد.

علا صوتُ إمامِ مسجِدِ قريتنا مناديًا لصلاةِ الفجر، مُعلِنًا بداية يومٍ جديدٍ، ويومٍ فارِق في حياة نسوةِ قريتنا، لطالما كان نداءُ الشّيخ «راضي» عاديًّا، إلّا أنَّني يومَها شعرتُ به وكأنّه إعلانٌ للانطلاق والحريّة. حملتُ الجرّة ورسمتُ على الشّفتينِ بسمةً، وانطلقتُ أُحيّي النسوة، وبدأتُ معهنّ رحلةَ الارتواءِ من نهر الحياةِ الأعذب؛ السّعادة. ملأنا الجِرار بالماء، وبدأنا نهروِلُ عائداتٍ نتسابقُ مَن يصِلُ إلى الأرجوحةِ أوّلًا . تبًّا لتلك «السّامية» التي لا يُرضيها إلّا المركزُ الأوّل في كلّ شيء، فها هي تقذِفُ بحذائها مترًا في الهواء وتُجلجِل بضحكاتِها وصداها يملأُ المكان، وتصيحُ:

– والله إنْ رآني زوجي، سيسجنُني في البيت، ولنْ يطلِعني منه إلّا على قبري! اتركوني أستمتعُ قليلًا قبل أنْ يحرموني من فرحتي وطيراني.

حتَّى «زهـرة» بنتُ الخمس سنوات باتَتْ ترمُقُها بغضبٍ وغيظٍ شديدين وهي تُلقي بجسدِها الهزيل على الأرجوحة، وتدفعُ بقدميها الحافيتين الطِّين من تحتِها وتعلو جيئةً وذهابًا في الهواء! وما أنْ تكرّمتْ سامية بتركِ الأرجوحة وجدْنا أنفُسنا مُجبَرين على إسعاد زهرة الصّغيرة بمساعدتها للرّكوبِ عليها، ودفعِها لتطير في الهواء كي نأخذ دورنا مُحلّقين بسلامٍ دونما صياحٍ أو بكاءٍ أو حتَّى عِراكٍ بالأيدي، فالأطفال بلا منطِقٍ ساعةَ يحِنُ اللّعِبْ!

(٢)
ضحى

تجلسُ لاهثةً.. والعرقُ يتقاطرُ من جبينِها، ويبلِّلُ جلبابَها المنزليّ الذي ترتديهِ منذُ فتحت عينيْها هذا الصَّباح، تُسنِدُ ذِراعها النّحيل على طرفِ النّافذةِ المُشْرعةِ على ساحةِ منزل عائلة زوجِها حيثُ تقطُن منذُ زواجها الذي مرّ عليه خمسةُ أعوام، شقراءُ الشَّعرِ.. بيضاءُ البشرة، عيناها كحبّاتِ الزيتون الأخضرِ المقطوفِ توًّا عن شجرتهِ. جميلةٌ كبدرِ البدورِ ضُحى، حظُّها جُلّه تمثّل في جمالها وذكائها، فما بقي لها الكثيرُ منه لتُقيم به ظهرَ أيامِها؛ فأُمُّها التي ورِثتْ منها الجَمالَ ماتت وهي في الخامسة من عمرها، وأبوها رجلٌ مكافِح، شُغِل برزقِ يومِه وتأمين عيشةٍ كريمةٍ لبناتِه؛ فتركهُنّ لأُمّه، والتي كان عليها الدّورُ الأكبر في تنشِئتهِن، فعلّمتهُنّ الصّلاة ومساعدتَها في ترتيب المنزل ودخولَ المطبخ لإعداد البسيط من الطَّعام. حنانُها كان هديةَ الرّحمن لضُحى وأُختِها الكبرى «أميرة»، فمَن كان ليُعطيهنّ الحنان مُكثّفًا إلّاها، والأمُّ غائبةٌ خلف ستائر القدَرِ بلا عودة؟!!

تنفُضُ عنها طفولتَها وتعودُ لواقِعها، فهي اليَوْم متزوِّجة في منزل عائلةٍ كبير، زوجة أكبر أبناء السّيّدة أمّ ماهِر وزوجها المتوفّي

واللّذيْن لديهما أربعةٌ من الأولاد، ويسكُنُ كُلّ واحدٍ منهم مع زوجته في غرفِ نومٍ موزّعة حول صحن الدّار، الذي يتشاركونَ الجلوسَ فيه، ويشتركون في استخدام ذات المطبخ والحمامات. هكذا يعيشُ معظمُ أهل قريتنا في دارٍ كبيرةٍ واحدة، تضمُّ أجيالًا مُختلفة، يتشاركون فيها كُلّ شيء كالطّعام وإعداده، تنظيف الدّارِ وترتيبِها، غسل الملابس وطيِّها، حياكة الملابس الجديدة للأطفال والكبار ومفارش الأسرّة والطّاوِلات، كلّ شَيْءٍ هُنا يُصنعُ باليدّ، لتزيد به أعباء المرأةِ ومسئولياتُها.

وبما أنَّها زوجةُ الكبير، فعليها دورٌ يفوقُ دورَ زوجات الإخوةِ السّاكناتِ معها في نفس الدّار، فإن هي تخلّت يومًا عن أحدِ أدوارها أو تركتْهُ لغيرِها؛ نهشتْها الألسِنةُ كما العيونُ الغاضبةُ المستهجنةُ لتمرُّدِها، فكانت دومًا تتّقي كُلّ الشرور وتقومُ بدورِها أضعافًا حتَّى يأتي موعِدُ نومها فتبيت على وِسادةٍ من دمعٍ اثّاقلَ فهطلَ من كثرة التّعبِ.. ومن عدم مبالاةِ غيرِها بها؛ حتّى زوجُها «ماهر» يراها تقومُ بواجِبِها الذي لا بُدّ لها من القيامِ به على أكْملِ وجْه.

قسطًا من الرّاحةِ كانتْ تأخُذُه ضحى- عند النّافذة- كما قالت لي ساعةَ مروري بدارِهم عائدةً من السّوق، حاملةً بعضَ نواقص المنزل التي اشتريتُها من هناك، ففي الصَّباح افتقدتُ زوجةَ حامد- شقيقِ زوج ضُحى الأصغر- التي لم تصْحبنا لجلْبِ الماء من النّبع

فأردْتُ الاطّمئنان على حالها والحديثَ قليلًا مع ضحى التي لطالما اعتبرتُها في منزِلةِ ابنتي، فلم يشأ اللهُ لي أن أُنجبَ بنتًا؛ فأخذتْ هي منزلتَها الغالية.

طرقتُ البابَ فجاءت مُسرعةً تسأل مَن بالباب؟ فأجبتُها: أمّ محمّد يا ضحى، أردتُ الاطّمئنانَ عليكم وعليكِ على وجْه الخصوص.

فتحتْ لي البابَ، وبسمةٌ مُشرقةٌ تُضيءُ وجهَها الصّبوح، ارتمتْ في أحضاني بعد غلقهِ ورائي، مرحّبةً ومُعتذِرة عن مظهرها غيرِ المُهندم؛ لأنَّها كانت تعملُ في الدّار، تحاول جاهدةً إنهاء أعمال التنظيف وإعداد الطَّعَام في آنٍ واحد، أخبرتُها بأنّني أحتاجُها معي غدًا صباحًا كي تُساعدني في جلب الماء، وطلبتُ منها استئذانَ زوجها وأُمّه في الخروجِ معي فَهُم يثقون بي أيّما ثقة. أجابت متردّدة:

– سأخبرُهم بأنَّك تحتاجينَني معك، ولكنْ كيف لي أنْ أساعدك وأنا أحمِلُ جرّتي؟

كانت إجابتي عليها جاهزة:

– غدًا تعرفين كيف! عليكِ المَجيء معي غدًا، واتركي الباقي عليّ. آه.. نسيتُ ما بها زوجة «حامد».. لِمَ لمْ تأتِ لجلب الماء الْيَوْم، وكذلك بالأمس كما أخبرتني الجارات!!؟ أتمنى أن لا يكون قد أصابها مكروه؟، أطرقتْ برأسها، وقالتْ: نظُنُّ بأنَّها حاملٌ، وتُعاني أعراض الوحم، فهي لا تستطيع القيامَ من سريرها صباحًا دون أن

تُعاني الغثيانَ وثقلَ الرّأس، سنأخذها إلى الوِحدة الصّحية اليَوْم لنعرف ما بها. تهلّلتْ أساريري ولكنِّي حاولتُ إخفاءها عنها، فهي لم تُرزق بِطفلِها الأوّل بعد، وهي التي تزوّجت قبل الجميع، وأهلُ الدار ما تَرَكُوا تلميحًا إلّا ولّمحوهُ بأنَّها السّببُ في تأخُّر الحمل، فرقّ عليّ حالها، ودعوتُ لها بأن يرزقها اللهُ الذّريةَ الصّالحة عاجلًا غير آجل. ودّعتُها وفتحتُ الباب متّجهةً إلى بيتي المُلاصِق لبيتِهم، وما انفكَّ عقلي يُفكِّرُ بحالِ تلك الضّعيفةُ ذات الحظّ السّيّئ.

بعدَ انتهائي من مهمّاتي داخل المنزلِ وقبلَ الغروب بقليلٍ، حملتُ نفسي وذهبْتُ أقصِدُ الأرجوحةَ، أتلمّسُ بعضًا من الهدوء والسّكينة في ضواحي قريتنا، بين ذراعيِ الطّبيعة أرتمي، ومن حنانها أرتوي، في الغروبِ أسكُبُ كأسَ الهمّ، ومن ذرّاتِ الهواءِ أُشعِل فتيلَ فرَحٍ يملأُ القلبَ نورًا لا ينطفئ.

رأيتُها هذه المرَّة منفردةً، تهتزُّ مُعلنةً إغوائي على استحياء، فتأتي إليّ، وما تلبثُ أن تهرُبَ بعيدًا عنِّي حين تلامِسُها أناملي المُتلهِّفة إليها..

«اهدئي قليلًا أيّتُها المشاكسة؛ ما أتيتُك إلّا حُبًّا، وما غِبتُ عنكِ إلّا انشغالًا، أشواقي ما كانتْ إلّا تتقاطرُ في الغِياب لتغمرَ الفؤادَ كالسّيلِ فآتيكِ غيرَ مباليةٍ لوقتٍ أو ظرف، خَلوتي بكِ هي الصّفاءُ لروحي ودوامُ الدّهشةِ لقلبي، وشبابٌ يتلبّسُ جسدي لبعض الوقت». هكذا حاورتُ أُرجوحتي كعاشِقٍ يصُبُّ معسولَ الكَلام

في أُذنِ محبوبتِه، فلا يكونُ منها سوى أن تُسلِّم بغوايتي لها.. وهي الرّاضيةُ المرضيّة.

فأُرجوحتي تجعلُكَ تعيشُ الدَّهشةَ، والتي تأخذك لتتعدّى دائرةَ الأمكنة، فتقذِفُ بكَ خارِجَ الأزمِنة، لتَقتنِص لحظةً بألفِ لحظةٍ من المعقولِ؛ في خِضمِّ زمنٍ من اللّا معقول الجميل، دهشةٌ تودُّ لو أنّها لا تنتهي ولا تكتمل، ولا تُسدَل عنها ستائر النَّغمِ الشَّجي في حضرةِ روحِك المُحلّقَة، دهشةٌ تتلألأ أمامَ ناظِريْكَ، تحمِلُ الجمالَ في أسمى صوَرِه والإبداع في أجلّ معانيه، في نشوةٍ يسمو بها نبضُ قلبكَ وشغافُ روحِك، فلا يقطعُ جلالها إلّا همسٌ بِداخلكْ؛ يُجلْجِلُ في الخلايا كما في الرُّوح أنْ:

«سُبْحَانَك يا خالِقَ كُلّ دهشَة، أدِمْ على قلبي فرحةً بجَمال الكونِ، لِيُصبِحَ لكُلِّ جميلٍ فيه- مهْما صغُر- بداخلِ قلبي أعظمُ دهشة».

أيُّها الغدُ، احْضرْ سريعًا لأجعل لضُحى ابنتي نصيبًا من دهشةٍ يَسعدُ بها قلبُها الضّعيف، ويفتحُ له طاقاتِ فرَحٍ تصِلُها بأبديّةِ النّعيمِ في ثوان.

(٣)
«سلمى وسالم»

يرمُقُها بنظرةِ حُبٍّ وحنانٍ من بعيد، منتظِرًا طعامَ الإفطار من إعداد يديها، صوتُ غنائها يصِلُهُ كتغريدِ عصفورٍ شجيّ مازال يحتفِظُ بنضارتهِ وعنفُوانِهِ منذُ تعلّم التّغريد، فلقد حباها الله بصوتٍ جميلٍ يصلُحُ بأن تصدحَ به في أيِّ مكان فترِقُّ به القلوب، وتنتعِشُ له الأرواحُ طربًا. (سالم)، ذلك الزّوجُ الثلاثينيّ الذي أتى للقريةِ منذُ عدّةِ شهورٍ تاركًا المدينةَ وراءه لكي يُساهِم في علاجِ زوجتهِ (سلمى) لتستعيدَ عافيتها في جوِّ القريةِ البكْر، بطبيعتها الخضراء الجميلة وثمارِها الطّازجة وعبيرِها المُنعش، سالمٌ تاجرٌ ميسورُ الحال؛ أمرَ ببناءِ بيتٍ له ولعائلتهِ في قريتنا إيمانًا منهُ بتأثير الحياةِ ببساطتها الأولى؛ على راحة البال وصفاء الذّهن وقوّة الجسد.

تركَ حياةَ المدينةِ بعدها في هُدنةٍ بعيدًا عن العمل في محاولةٍ لاستعادةِ بسمةِ حبيبة قلبه (سلمى)، والتي معها دقّ الحُبُّ بابَه لأوّلِ مرّة فتشعّب وتكاثر ونَما كحبٍّ أوْحَد لا يجِدُ للحياةِ طعمًا دونَه. ما كان تاجِرًا حينها؛ بل مراهِقًا يعملُ حمّالًا بجدٍّ واجتهادٍ ليحصُلَ على يوميّةٍ تُعينُه وهوَ اليتيمُ بلا أبٍ أو أمٍّ. عرفها من نظرة،

نظرتُه تلك إليها أعادتْ لهما لحظاتِ لقائهما الأوّل من جديد حين كانا في عِدادِ الأرواح، فتمسّك كلّ واحدٍ بطرفِ نظرةٍ وترك الرُّوح تغادِر إلى حيثُ ترتاحُ في حمايةِ أضلاعِ الآخر، ما لبثا أنْ تبادلا الأفئدةَ كذلك، فكان لِزامًا عليهِما أنْ يعملا على جمعٍ بينهُما بالحلالِ ليستعيدَ كلّ فاقدٍ ما فقد. فاشتغل (سالم) ليلًا ونهارًا.. صيفًا وشتاءً.. معافًى ومريضًا، لكي يأتي سريعًا ذلك اليَوْمُ الذي يذهب فيه إلى أبيها طالبًا يدَها مُقدِّمًا كلّ ما يملُك لتكون معَه، فليس يبغي مُتعةً من متعِ الدُّنيا سواها، فكان له ما أراد.

(سلمى) تُغنّي «يا صباح الخير ياللّي معانا.. ياللّي معانا، الكروان غنّى وصحّانا.. وصحاااانا) فهكذا دومًا أَحبّها سالم أنْ تفعل. وفِي هذه الأثناء، تُقطّعُ الخيار والطّماطم إلى شرائح شهيّة، وتضعها في صحنٍ ينضمُّ بعد قليلٍ لإخوتهِ من الصّحون. ليس بعيدًا عنها طاولةٌ رُصّ عليها ما لذّ وطاب من خيراتِ أرضنا ومواشينا، فهذا صحنُ زيتونٍ يتلألأُ عليه زيتُه ليغرقا في ملحمةٍ ترسُمُها كلّ أراضي فلسطين وتفخرُ بوجودِها كجزءٍ لا يتجزّأ عنْ فاخر موائدها.. بجانبِه صحنُ لبْنةٍ مكوّرةٍ بالنّعناع وحبّة البركة، زعترٌ في طبقٍ، وزيتُ زيتونٍ في طبقٍ عميقٍ إلى جوارِه فهُما لا يفترقان، وصحنُ حُمُّص ومخلّل.

ها هي (سلمى) تدُقُّ قليلًا من الثّوم في الهوِن فيتحيّنُ (سالم) الفُرصةَ ليرمي حُفنة من فصوص الثومِ المُقشّرة داخِلَه لترمُقه بعدها

بنظرةِ المستهجِنِ وتُكمِلُ الدقّ والهرس بيدِ الهون صانعةً إيقاعاتها الخاصّة. وعند انتهائها، تفصِلُ نصفَ الكميّةِ المهروسة منه لتُعطيها إيَّاه ونصفها الآخر تُضيفُ إليهِ الفلفُل الأخضر الحارّ والملح، ومن ثَمّ تضيفُ إليه عصيرَ الليمون، وتُحرّكهُ سويًا حتّى يمتزِجَ صانعةً به صحن دقّةٍ شهيّ، فتَغرِسُ في قلبهِ ملعقةً صغيرةً ليُؤخَذ القليل منها فيضافُ على الحُمُّص أو الفول ليزيد طعمَه غنًى ولذاذةً عند تغميسِهِ بخُبز الطّابون الطازج.

أمَّا مهروسُ الثّوم الذي بحوزة (سالم) الآن.. فلَهُ فيه مآرِبُ أُخرى! فما كان هو ليترك مائدةَ الإفطار دون طبقِه المُفضّل «قرص بالثّوم» متربّعًا على قلب المائدة بكامِل هيبتِهِ ووقارِه وطعمِهِ، ورائحتُه الشّهيّة توزَّعُ على الجميع بالتّساوي ليأخُذَ بالألباب. يقفُ (سالم) بسعادةٍ يكادُ ينطِقُ بها جسدُه كُلّه، وهو يُضيفُ القليلَ من الكمّون إلى الثّومِ المدقوق مع الملحِ والفلفُل الأسود، ومن ثمّ يُضيفُ إليه البيضَ نيّئًا فيمزجه جيّدًا ويضعُه في المقْلاةِ فوق النّار ويقلّبُه بعد نضوجِه على الوجهِ الآخر لينضُج هو الآخر، ويكونُ جاهزًا بعدَها للأكل، فيضعُه على المائدة، ويضعُ إلى جوارِه طبقَ جبنة نابلسيَّة مقليّة في زيت الزّيتون تناولهُ لهُ (سلمى).

هكذا أصبحتْ وجبةُ الإفطار جاهزة، وبقي إعدادُ الشّاي فهو رفيقُ صباحنا الدّائم. تُغلِقُ سلمى الموقد بعد سماعِها صفّارةَ

إبريقِ الماءِ مُعلنةً وصولَ الماء داخِلها إلى درجة الغليان، فتسكبُه في إبريق الشاي فوق أوراق الميرميّة الجافّة والسُّكر والشاي، تُقلّبُهُ جيدًا وتستنشق بخارهُ المتصاعد ليتغلغل في أنحاء رئتيها، ومنها إلى الخلايا لتستيقظَ من سُباتِها كما يجب، من ثمَّ تُغلِقُ الإبريقَ لتضعهُ على الصينيّةِ إلى جوار خمسِ كئوسٍ شفّافةٍ بعددِ أفراد الأسرة. ترفعُ وجهَها وقد علَتْ شفتيها ابتسامةٌ لتجِدَ عينَ (سالم) تتتبّعُها بِحُبٍّ ليفهم حاجتَها للمساعدةِ في نقل صينيّة الشّاي إلى المائدة، يهُبّ من مكانه فيفعل ويعودُ لها ليحمِلها بينَ ذراعيهِ من كُرسيّها الذي تجلِسُ وتعدُّ عليهِ كُلّ شَيْءٍ؛ ليُقعدها على كرسيّ ثانٍ عند المائدة، ينحني ليطبَعَ قُبلةً على جبينِها، ويبدأ بمناداةِ الأطفال لينضمّوا إلى المائدة.

في هذه الأثناء، ترمُق (سلمى) أقدامَها- المتدلّيةَ أسفلَ الطّاولةِ والمشلولة منذ زمن- بنظرةِ حسرةٍ وعجز؛ فسيقانُها الجميلة التي لا تشعُرُ بالدّماءِ تمرُّ فيها اليَوْم ولا تحمِلُ جسدَها الهزيل لمدّةِ دقيقةٍ واحدة؛ كانت يومًا ما صحيحةً معافاة، تمشي وتركُض بها، تحمِلُ أطفالَها وقوفًا عليها، وتؤدّي مهامّها بها دون انقطاع، لم يجُلْ بخاطِرها ولوْ للحظةٍ واحدة بأنّها ستتعرّضُ لإصابةٍ تُقعدُها مدى الحياة وهي في أوْجِ شبابها، وأطفالُها في أشدِّ الحاجَةِ إليها. تنفُض عنها ذِكراها الأليمة سريعًا وهي تسمعُ أصوات أطفالها يتشاجرون أيُّهُم يصِلُ إليها أوّلًا.. فتبسُمُ وتُغنّي وهي تفتحُ ذِراعيها لتقذِف الجنان نفسها في أحضانها، دون أن تخطو خطوةً واحدةً إليها.

تتنهّد (سلمى) متسائلةً عن تأخُّر مُساعِدَتِها في جلبِ الخُبز المخبوزِ توًّا في الطّابون:

- تأخّرت خديجة يا (سالم)، سيبرُدُ الطَّعَام وهي لم تأتِ بالخُبزِ بعد.

وإذا ببابِ البيت يُطرق ويُفتح في آنٍ واحد، فتدلُفُ منه صبيّةٌ في عُمْر الرّبيع تحمِلُ ستّة أرغِفةٍ ساخنةٍ متوسّطةِ الحجم، ملفوفةً في شالٍ أبيض، فتعتذِرُ عن تأخُّرِها قائلة:

- مرَّتْ بي، يا سيّدتي، وأنا أخبِزُ الخبزَ في الطّابون الحاجّة (أمّ العبد)، وهي تدعوكِ غدًا على حفلةِ خطوبةِ ابنتها (مريم) في دارِها، وأكّدت عليّ القول بأنّها لا تقبلُ الأعذار، وبأنّكِ حتمًا أوّل المدعوّات وأهمّهُنّ، فلا تحْرميها شرفَ حضورك ومشاركتها أفراحَها، كما أخبرتني سيِّدتي.

قالتْ ذلك وهي تكشِفُ الشّالَ عن وجْه الخُبزِ فتوزّعه رغيفًا رغيفًا على أفرادِ العائلة بيدِها الصّغيرة، فيبدأ الأطفالُ بتقطيعِ أطرافِه، والزّجِّ بها في أفواهِهِم، ومضغِها بنهمٍ شديد، فتتعالى بعدَها ضّحِكاتُ الأبِ والأُمِّ استنكارًا لجوعِهم واشتهائهم للخبزِ دونًا عن كلّ ما لذّ وطاب من الطَّعام على المائدة، لتجحَظَ العيونُ الصّغيرة، وتتوقّف الأفواهُ عن المضْغ في ذهولٍ، وتلك الرّؤوسُ الصّغيرةُ تتلفّتُ حولها وكأنّهم يتساءلون:

- ما بالهم يضحكون علينا، ألم ينادوننا لأكلِ طعامِ الإفطار.. أم أنّ هُنالك شيئًا آخر يجبُ أن نفعلهُ؟!

(٤)
«عقدة ضُحى»

أصحو فجرًا لأسابِقَ الطّير في نشاطِه، والنّدى في نقائِهِ وصفائه، أفتحُ عينيّ وأفرِدُ ذراعيّ في كُلّ اتّجاه، أملأُ رئتيّ بالهواء حامدةً ربّ الأكوان أنْ أعاد إليّ روحي، أتحسّسُ جسدي وخصلاتِ شعري، وأهمُّ بالوقوف، أبسُم لشُعاع الشَّمسِ المتسرِّب إليّ وهو يُداعِبُ وجنتيّ وستائرَ غرفةِ نومي. خجولةٌ تقِفُ سِتارتي الشّقيّةُ مستمتعةً بغزلٍ تُسِرّ لها به الشّمسُ، فلا تُحرِّكُ ساكنًا حتَّى أزحزِحها جانِبًا لأنعمَ بحلوِ حديثِها مسكوبًا كالشّهدِ في دمي. ولوْلا أنَّني على موعدٍ لجلبِ الماء بصُحبةِ ضُحى ونسوةِ القرية لجلستُ ثمِلةً بحوارٍ يمُدُّ شالهُ اللامتناهي طولًا، على أكتاف الشَّوقِ إلى الهدوء والتأمُّل.

أسكُبُ الماءَ من الإبريق على يديّ وأبدأ بالوضوءِ، حتَّى قطراتُ الماء الصّافية هذه أحاوِرُها وتُحاوِرني، فالكُلُّ ثرثارٌ في حضرتي، وكلِّي آذانٌ مُصْغية، فالحياةُ تستنزِفنا كُلّ يومٍ بمنتهى الأنانيّة، إن لم نحافظ على تلك الفُسحةِ التي نُجدِّدُ بها الهواءَ داخِلنا، ونزرع بأيدينا بذورَ التّغيير والسّعادةِ كحقٍّ يجبُ أن نمنحَه لذواتنا كيْ تقوى على السّير قُدُمًا لأطولِ وقتٍ ممكنٍ دون أن تهترِئ أرواحُنا لهْثًا لإرضاء الآخرين على غير هوانا. فالكثيرُ منَّا تبلَى روحُه وهو يرتادُ أُولى محطّات الحياة، يسيرُ به القِطارُ غَيْرَ آبهٍ بعثراته، ويظُنُّ بأنّ جميعَ المقْطوراتِ فيه سواء. جميعُنا يعلمُ نهايةَ الطَّريق الذي يأخُذُنا إليهِ،

ويدرِكُ بأنّ مقاعدهُ متعدِّدةٌ ونوافِذَه تُطِلُّ على مناظِرَ شتّى، ويظلُّ المشهدُ الرّماديُّ هوَ الذي يتملّكُنا؛ حتّى يُطِلَّ لونٌ برأسِه في زاويةِ النّافذةِ التي نجلِسُ إلى جِوارِها، يطلُّ كطِفلٍ فضوليٍّ يهوى اللّعِب وينتظِرُ الرّفيق؛ وهو يستجدي أعيُننا بحديثِه الصّامت معنا، ودُونَ قصدٍ منهُ تدُبُّ في عروقِنا الحياةُ، فلا نعدْ بعدها قَادِرين على العودةِ إلى سابقِ عهدنا في التّعامُلِ مع أنانيّتها.

ألبسُ ملابسي، وأضعُ حجابي فوق رأسي ليُغطي ما تناثرَ من خصْلاتِ شَعْري على الأكتاف والجبين. حاملةً جرّتي داسّةً أصابعَ قدمي في نعْلي، فأغدو خارجَ المنزِل متّجهةً إلى بيتِ ابنتي ضحى، وما أكبر حماستي اليَوْم في أنْ أُعيد بعض اللّون لنافذتها وألوانها الرّماديّة.

سِرتُ وإيّاها والنّسوة، نقطعُ الطريقَ عدْوًا، نُلقِمُه الكثيرَ من الأحاديثِ ليقصُر فيمنّينا هو بقُربِ وصولنا إلى أرجوحتنا متلهّفاتٍ لدورٍ عليها يُعيدُ سريانَ الدّمِ في عروقنا من جديد، ونتجاذبُ أطرافَ الحديثِ، وقد كانت خطوبةُ مريم شُغلَنا الشّاغل قبل ساعاتٍ من المناسبة.

فقالت (سامية):

- انتهيتُ بالأمسِ من تطريزِ ثوبٍ جديدٍ لي لهذه المُناسبة، استعملتُ خيوطًا ذهبيةً في مُعظمِها مطعّمةً إيّاها بخيوطٍ بُنيّةً صانعةً منها أشكالًا هندسيّةً على ثوبي الكُحليّ التُّراثيّ، فأجملُ أوقاتي هي تلك التي أرتدي فيها شيئًا يحمِلُ بصمةَ أصالة بلادي وعبقَ تاريخ أجدادي مُحاكًا بأناملي غرزةً.. غُرزة، فلطالما استهواني شُغلُ الإبرة، وأسْعدني في أوقات فراغي.

فردّت عليها (ضحى):

- منذُ أكثر من العام.. وأنا لم أجلسْ للتّطريز، وبخاصّة شيئًا ألبسهُ فأتفاخرُ بذوقي فيه وبجهدي، ولكنَّني كنتُ قد حِكتُ وطرّزتُ ثوبيْن تُراثيّين من ضمن تجْهيزاتي لملابس زواجي التي أخذتُها معي إلى بيت زوجي، وسألبسُ واحِدًا منهما.

ردّتْ عليها (أمّ فايز):

- أنت مازلت عروسًا يا ضحى ما دُمتِ لم تنجبي بعد، وهذه ميْزة تفقدها الكثيراتُ سريعًا بعد الزواج، الْبسي ودلّلي نفسَك يا جميلةَ قريتنا، يا لَسَعدِهِ بكِ زوجُك، متأكِّدةٌ بأنّ أُمَّه دعتْ له في ليلةِ القدر لتكوني أنتِ من نصيبِهِ كزوجةٍ للعُمر كُلّه!

هنا، تعالتْ أصواتُ النِّسوةِ مؤكِّداتٍ على كلام (أمّ فايز)، فتضعُ الأخيرةُ يدَها على بطنِ ضُحى، وتسألُها بمنتهى الفضول:

- ألمْ تحبلي بعْدُ يا ابنتي؟

- لا يا خالة، دعواتُك فقدْ بدأتُ أيْأس من طول الانتظار.

- اللهُ كريمٌ، سيهبُكِ ذريّة تقرّ بها عينُك يا حبيبتي. وها هي مفاجأتنا لك اليَوْم يا جميلة، ما رأيُك بأرجوحتنا هذه؟

قالتْها وهي تُشيرُ إلى الأرجوحة، وجميعُنا يسلُك الطريقَ إليها، وقد بَدَا قوامُها الرّشيقُ يتمايَلُ أمامي مجدّدًا فتسلبُ لبِّي، وترفعُ عيوني عن كلّ ما عداها!

وبعدَ وصولنا بقليل، تنبّهتُ.. إذْ بضُحى واقفةً في ذهول تتفرّسُ

حركاتِ أجسادِ الضّاحِكاتِ ممّن يعتلين الأُرجوحة، وهُنّ معلّقاتٍ بين السَّماءِ والأرض حيناً، مُرتدّين بالقُربِ منَّا بعدها في ثوانٍ، وفِي غمرةِ انْبهارِها جلستِ القرفصاء، وبدا عليها الوجومُ وهي تسندُ خدّيها على راحتيها. ومازال بؤبؤا عينيْها الخضراويْن يرتفِعان إلى أقصى حدقتيها ويرتدّا، كبندولٍ لا يتوقّف عن الحركة.

فجلستُ القرفصاءَ إلى جوارِها، وسألتُها باندهاشٍ:

- ألنْ تأخذي دورًا لتُحلِّقي كطائرٍ ملَّ محبسَه خلفَ القضبان؟

- لها في قلبي رهبةٌ يا خالة، فلي معها ذكرياتٌ مؤلمةٌ في طفولتي، ولستُ أنْسى بأنّني وقعتُ عنها يومئذٍ، ولوْلا أنّني كُنتُ مُمتلِئةَ الجسد لدفعتُ ثمنَها من حياتي. إحراجٌ وخوفٌ لازمني كُلَّما وقعتْ عيني على واحدةٍ مثلها، كما لديّ رغبةٌ جامحةٌ للتغلُّبِ على سطوةِ ذاتي التي تحرمُني فنًّا من فنونِ السَّعادة.

- لا عليكِ، تابعي النَّظرَ وتأمُّلَ حركاتِ أجسادِ صويحباتِك، وتعلّمي التّطبيق لاحقًا متى ما تملّكتكِ الشّجاعةُ لتقليدِهِنّ والاستمتاع بلحظةٍ من لحظات العُمْر اللّامنسيَّة فرحًا.

مرّ الوقتُ سريعًا عند أُرْجوحتنا، حتَّى حانَ وقتُ رحيلنا، والصّغيرة (زهرة) لم يحنْ دورُها، فتجُرُّها أمُّها وهي تبكي، والتّرابُ يتراشقُ علينا من رفسِ أقدامِها في الأرض لنبتلعَ بعضَه وتدْخُل الكثيرُ من حبّاتِهِ في عيوننا، على الرّغم من أنّ أرجوحةَ الأطفال متاحةٌ في كلّ حين، إلّا أنَّها على ما يبدو تجدُ أُرجوحتنا هذه أكثرَ جاذبيّة، تتخيّلُ بأنَّها ستضيفُ إليها علامةً من علاماتِ النُّضوج.

(٥)
«خطبة مريم»

عُدْنا ونحنُ نُكملُ الحديثَ عن حفلة خطوبة «مريم» ابنةِ أمّ العبد جارتنا، فجميعُنا مدعوّاتٍ إليه هذا المساء، ولا يخفى على أحدٍ بأنّ موضوعًا كهذا يعدُّ موضوعًا خصبًا يتبادلُ له النّساءُ أحاديثَ طويلةً لا تنتهي، من حيث تجهيز ملابس مناسبةٍ لهُنّ ولفتياتِهِنّ، وإبراز جَمال وطول شعرهِنّ، فتلك فرصةٌ ثمينةٌ للفتياتِ خصوصًا؛ كي يظهرنَ بأجْمل هيئة وأبهى حُلّة أمامَ النِّسوة، فتُعجَبُ بإحداهُنَّ أُمٌّ حاضرةٌ فتُرشِّحها لابْنها كعروسٍ يباهي بها الجميعَ، وتكونُ له السّكن والمسْكن.

وعلى الرّغم من أنَّ مريم مازالتْ طِفلةً في نظري؛ فهي ابنةُ الأربعة عشر ربيعًا، إلّا أنّ البنت في عُرفِ قريتنا تُعدُّ مؤهّلةً للقيام بمسئولياتِ الزّوجةِ والأمِّ حينَ تَشُبُّ عن الطّوق فتصبح جميلة قويّة البنيان، ويا حبّذا إنْ كانتْ مُطيعةً لا يُسمعُ لها صوتٌ إلّا مُحاكِيًا للعصافير في التّغريدِ فوق الأشجار.

فِي المساء، كانت استعداداتنا على أشُدّها كحضورٍ كريم، بدتْ «أمّ العبِد» والدةُ مريم جاهزةً لاستقبال الجميع، ففي ساحة المنزل كانت

الكراسي منظّمة على شكْلٍ بيضاويّ ليجتمِع فيه الرّجال، وفِي داخِل المنزل حيثُ السّتائِرُ مُسدلة هُيّئَ المكانُ لاستقبال السّيدات للمباركة، وإضفاء جوٍّ من الفرح بغنائِهنّ لبعضِ الأهازيج التّراثيّة والرّقص عليها، استقبلتنا أمُّ العروسِ بالبسمةِ والتّرحاب، وكانت القهوةُ تعبُقُ المكانَ برائحتها الشّهيةِ أثناءَ صبِّ الصبايا لها في فناجينِ الحاضِرات ترحيبًا بِهنّ، كان همسُ السّيدات للفتياتِ حينها «عقبالك يا خالتو»، لتتخضّبَ وجوهُهنّ بلونِ الخجلِ، حتَّى ما عُدْنَ يستطِعنَ النُّطقَ بحرفٍ واحد مطأطِئات رؤوسهَنّ دليلًا على أثرها البالغ عليهنّ! وما إنِ انتهت ضيافةُ القهوةِ حتّى جاءنا خبر اتّفاق الرِّجالِ، والموافقة على (رائد) خطيبًا وزوجًا لمريم في القريب العاجل، بقولهم:

– قرأنا الفاتحة.

أُطلِقتِ الزّغاريدُ من أفواهِ الحاضرات ابتهاجًا بالخبرِ السّار، تبادلنَ على إثرِها العناقَ والقُبل مباركةً وفرحًا ببيتٍ جديدٍ غضّ يبنى بقلوبٍ فتيّةٍ، وأطلقنَ أصواتهنّ بالغناء تَرْديدًا لأهازيجنا التراثيّة.

سلمى كانت تعرِفُ جَمالَ صوتها جيدًا، فـ (سالم) زرعَ في نفسها الثّقة بأنّ لها صوتًا دافئًا عذبًا حنونًا، وبأنّه أجملُ هديّةٍ تُسعِدُ بها أرواحًا تتغنّى بالجَمال في صورة صوت، لهذا ما توانتْ يومًا عن مشاركةِ أحبّتها أفراحَهُم بالغناء، ابتهاجًا علا صوتُها صادحًا بالغناءِ تجهيزًا لدخول العروسِ عليهنّ:

«قولوا لإمُّه تفرحُ وتتهنّى، ترشّ الوسايد بالعُطُر والحِنّة، ترشّ الوسايد بالعُطُر والحِنّة..

يا دارِ هنّا وابنيها يا بنّا، والفرح إلْنا والعُرسان تتهنّى، والفرح إلنا والعُرسان تتهنى..

والدّار داري والبيوتِ بيوتي، وإحْنا خطبنا يا عدوِّي موتي، وإحْنا خطبنا يا عدُوِّي موتي..

يا بَيِّ مِريم لا تكون عبوسي، واسْمحِ بوجّك واعطي هالعروسِ، واسْمَحِ بوجّك واعطي هالعروسِ..

يا بيِّ مِريم لا تكون طمّاعِ، والمال يفنى والنّسب نفّاعِ، والمال يفنى والنسب نفّاعِ»..

وهُنا، لاحت العروسُ بكامل زينتها وجَمالها، تلبسُ فستانًا أزرقَ بلونِ السَّماء الصّافيةِ، يُبرَزُ جمال وتناسُقَ قوامِها، ولونَ بشرتِها الأبيض الرّقراق، وجهُها مستديرٌ كالبدرِ في تمامِه، عيناها ناعستان مكتحِلتان بلونِ ديجوريٍّ يزيدُ من جَمالِ نظرتِها الخَجولة، شعرُها ينسابُ خصلًا من نورِ الشَّمسِ يموجُ كبحرٍ يحرِّكهُ النّسيمُ هونًا على أكتافِها، فتنةٌ للرّائي هي، رأسُها يكادُ يُلامِسُ نحْرَها من الخجل، أمّا روحُها فبدتْ مرفوعةَ الهامَةِ مزهوّةً بنصرِها الكبير، فها هي ذا تُزَفُّ إلى «رائد» دونًا عن كُلّ بنات القرية اللّواتي تمنّين الاقترانَ به، فهو فتًى وسيمٌ قويُّ البُنية، ويُعتمدُ عليه في المهمّات الكبيرة في أسرته،

كانت هي الأوفرَ حظًّا بينهُنّ لنيْل هذا الشَّرَف بما أنّها ابنةُ عمِّه، فمريم فتاةٌ باهرةُ الجَمال حسنةُ المعشر خفيفةُ الظِّلّ، ممّا جعلَه يبدو فخورًا بها وهو يغمُرُ يدَها بدفءِ يده لمصافحتها ودخول الغرفة بِصُحبتها أمامنا، فهيئتُه كانت أكبرَ واشٍ عن مدَى فرحتهِ بنيْلِ يدِ فتاةِ أحلامهِ المصون.

بعدَ تمايُلِ العَروسينِ أمامَنا رقصًا وابتهاجًا على إيقاعِ غنائنا وتصفيقنا، أسلَمَا جسدهُما للرّاحةِ على الكنبةِ الخاصّةِ بِهِما، وقام الفتياتُ بتوزيع أطباق الكنافةِ الطّازجةِ الشّهيّة على الحضور في طقسٍ اعتادت عليه بلداتُ فلسطين احتفالًا بالمناسبات السّارة.

في طريقِ عودتنا آفلين من خِطبةِ مريم، لمْ تكُفّ النِّسوة عن الحديث عن فُستان العروس والفتيات الحِسان اللّاتي تمايلنَ فَرحاتٍ على الأهازيج، وانتقدنَ بعضهنّ ممّن لم يُحسِنّ الرّقص، وكيف أنّ ذلك يعني فُرصة أقلّ في الزّواج! فقاطعتهُنّ قائلة:

- دعْنَ الخلقَ للخالِق، لا إله إلّا الله، لا تترُكن شيئًا دونَ تمحيصٍ لتفتحنَ بابَ النّميمة على مصراعيه، ومَن ذا بعدُ يُغلقُه؟

تردّ عليّ (أمّ فايز):

- حسنًا إذًا.. فلنتحدّث عن الأرجوحة، دعوني أسأل إنْ كُنتُنّ تشعُرنَ بأثرٍ ايجابيٍّ على حياتكُنّ بسببها؟

تجيبها (سامية) في ثوانٍ: غيّرت فيّ الكثير، وأردفتْ تُكمل:

- اليَوْم وبعد عودتنا من تعبئة الجِرار وركوب الأرجوحة، شعرْتُ بأنّ الحياة تجدّدتْ في دمي، لرُبّما حتّى لونُه تغيّر لامتلائه بالهواء النّقيّ، إنْ كشفت عليه ممرّضة الوحدة الصِّحية لوجدت حتّى طعمه مُتغيّرًا!

قالتْها وأطلقتْ ضِحكتها في الهواء لا يرُدُّها شيء، نضحكُ معها جَميعنا على طريقة تعبيرها الغريبةِ عن سعادتِها بالأرجوحة، وأُكملُ خلفَها بحماسة:

- صدقتِ والله يا سامية، حقًّا شعرتُ بهذا وليس مزاحًا، وكذلك تلمّستُ البسمةَ تنتشرُ على شِفاهي، وأصبحتْ حركتي في المنزل بِخفّةِ الفراشات، وزوجي يشهدُ على ذلك! فانتهيتُ من مسئولياتي المنزليّة في وقتٍ قياسي، ممّا استرعى انتباهَه فسألني مستغربًا:

«ما الذي يحدُث لك هذه الأيّام! تبدين أكثرَ سعادةً وبهجة وإنجازًا للأعمال المنزليّة!»

- كأنّني من المفترض أنْ أطبعَ تكشيرةً على وجهي وأُبرِز خطوطَ جبهتي طوالَ الوقت، أليستْ ملامحُ وجهي الجادّة تلك هي نتيجةً لتعبي ومجهودي في المنزل دون وجودِ أيّة متعة صغيرةٍ تتخلّلُ يومي؟!

تضيفُ (أمّ فايز) تعقيبًا علينا:

- واللهِ كلامكُما صحيح، كم غيَّرت الأرجوحة في نفسيّاتنا، لَكَم أودُّ معرفة واضِعها ومثبِّتها في الشَّجرةِ المعزولة على جانب طريق العودة!

فردّت عليها (سامية):

- وأنا كذلك، أريد أنْ أعرف مَن هي تلك السيّدة التي وضعتْها هُناك، وسأُهديها قطعةً من ذَهبي، لأنّه لا يُعقل إلّا أنْ تكون سيِّدة كادِحة رقَّ عليها حالُنا، وقرّرتْ أنْ تُسعِدَ نفسها وتُسعدنا معها!

تلفّتُّ يمينًا ويسارًا لأتأكّد بأنّه لا أحد يسترقُ السّمع لما هو آتٍ من حديثي، فلمحتُ (ضُحى) شاردةً بفكرها وجسدها بعيدًا عنَّا، تزرعُ عيونها بين أقدامها وتعيشُ ملكوتها الخاصّ، فلململتُ أكتاف (أمّ فايز) و(سامية) أضمُّهُما إليّ بذراعيّ لتكون آذانُهُما أقربَ إلى همساتي، قائلةً بحذرٍ شديد:

- أنا مَن وضع الأرجوحة هنا! لا تبديَا أيّ حركة مفاجئة أرجوكما كي لا يلاحظها أحدٌ فيشُكّ في أمرنا، ابتسِما وكأنّنا نتحدّثُ حديثًا عاديًّا. أمانة عليكما ألّا تُخبِرا أحدًا أبدًا، وأنت يا (سامية) لا تخافي، لا أُريد أي قطعةٍ من ذهبك، أريدُ فقط أن نجعلَ للبهجةِ نصيبًا فينا، ما فات من العُمْر لن يعود، والقادم ليس أكثر من الفائت!

(أمّ فايز): لم أشكّ للَحظة أنَّك مَن وضعها هناك! ولكنِّي كنت أتغابى أمامك.. ألمْ أقلْ لك يومَها كم أنت قويّة يا أمّ محمد؟

تعالتْ ضِحكتي من جديدٍ، و(سامية) تهتزُّ تحت ذِراعيّ، تكادُ تتقافزُ كأنّها لسِعتْ من عقرب، بيْدَ أنَّها لم تكُنْ تتألّمُ من الوجع؛ بل لأنّها ستحتاجُ للصّمتِ وحفظ الأمانة التي أمّنتُها إيّاها وهي لا تستطيع فعل ذلك، ستفعلُه مُجبرةً من أجل الهدف الأكبر؛ ألا وهو استمرارُ فرحتها بالأرجوحة، فيا لها من تضحية بالنِّسبةِ لها!

تفرّقنا لتدخُل كُلّ امرأةٍ منَّا بيتَها بانتظار موعدِ لقائنا في الصَّباح الباكر، كما أنّ (ضُحى) أكّدتْ عزمها على إلقاء مخاوفِها جانبًا، وتحقيق حُلمها المنشود باعتلاء الأرجوحة والتّحليقِ بها بعيدًا عن عالمها قليلًا من الوقت.

وأثناءَ دخولي المنزل، لاحظتُ فأسًا في غير محلّه وأحبالًا تشبِهُ تلك التي استخدمتُها في صنع الأرجوحة- إلّا أنَّها مغطّاة بالأعشاب والأتربة- ملقاةٌ في سلّةِ المُهملات عند مدخل الدّار، والقليلُ منها يتدلّى خارِجهُ وفوضى عارمة من حولِ السّلةِ، وكأنّما تلك الأحبال كانتْ تستنجِدُ بي ساعة الإطاحة بها! المشهدُ حاصرني ولم يدعْ لي مجالًا للشّك بأنّ زوجي فعل فِعلته وقطعَ شريانًا يغذِّي أرواح نساء القريةِ بالفرح ودماءهنّ بالأكسُجين.

ماذا عسايَ الآن أنْ أفعل؟ يا الله.. أحتاجُ عونَك ونصرَك.

(٦)
«قلقُ الفكرة»

بقيَتْ (سلمى) آخرَ حاضرٍ في الحفل، فهي تحتاجُ إلى ذراعي (سالم) وقلبه الحنون كي يحملها ويعود بها إلى منزلِها، فهي ما كانتْ لتكونَ اليَوْم هنا لو أنّ (أمّ العبد) لم تُصرّ على حضورها، لأنّها تعلم حجم المشقّة التي يتعرّض لها زوجُها في حالةِ نقلها من مكانٍ لآخر، هي تشعُر في قرارةِ قلبِها بالشّفقة عليه، لأنّه مُجبرٌ على الاعتناء بها في مرضِها الذي يبدو بأنّ بُرْءَهُ سيتأخّر، أو ربّما لن يأتي أبدًا، ولكنّهُ لم يكُن يومًا ليُشعِرُها بذلك، فهي مازالتْ فتاةَ أحلامه التي حصُل عليها بشقّ النّفس، وجودها معهُ وإلى جوارِه في الضّراء قبل السّرّاء يُغنيه عن كلّ أحدٍ.

تقطعُ (أمّ العبد) حبلَ أفكارها واضعةً يدها على يدِ سلْمى المستسلمة على فخذِها باطمئنان، قائلةً:

- كان الحفل بحضورك يا (سلمى) مميّزًا جدًّا، لا أدري كيف أشكرُك على تواجدك، وعلى مشاركتنا الأهازيج بصوتِك العذب، حتَّى أنّ عروسنا مريم مبهورةٌ بأنَّكِ تمتلكين صوتًا ملائكيًّا كهذا وما عرفتْ عنه حتَّى اليَوْم، فكانت بكِ والله الفرحةُ فرحتيْن.

- إنَّه لِمن دواعي سروري تواجدي بينكم، فـ(مريم) الحبيبةُ ابنة الحبيبة، ولستُ أنسى أفضالك عليّ من الوقت الذي حطّت فيه عائلتي رحالَها في

الدّارِ المُلاصِقة لكم، فأنتِ مِن حينهِ ما تركتِ مساعدةً إلّا وقدَّمتها لي، حتَّى الخادمة أنتِ مَن أشرتِ بها عليّ. أفلا أردُّ شيئًا ولو يسيرًا ممّا قدّمتهِ لي؟ ولولا عجزي هذا الذي أتمرّغُ في طينِه لرقصتُ لها ومعها، فليَعْلم الجميعُ كم تعْنون لقلبي الضّعيفِ هذا!

وضعتْ كفّها اليمنى على جانبِها الأيسر من الصّدر؛ فانْسابت الدّموعُ من عينيْها لتمسحها سريعًا بأناملها وهي تزُمُّ شفتيها مُحاولةً جهدها عدمَ التّمادي في التّأثُّر دُونَ فائدة، فبعضُ المشاعِر إبداؤها ضعفٌ وعار، ولكنْ ما حيلتنا ونحنُ نُكابِرُ أمامَ مَن نُحبّ كي نبدو أقوياء، فنحنُ لهم كُلّ شيء، ولا وقت لأنْ نضعُف أو نستسلِم لأحزانِنا الدّفينة وإنْ كانت لبعض الوقت، فنحنُ ذلك السّند الذي لا بُدّ أنْ يبقى واقِفًا لا تهُزّهُ ريح ولا تُغيّرُ عواصِفُ الحياةِ صلابةَ بنيانه، أو تُعرِّضهُ للتّآكُل؛ ولكنّنا في أوّل فرصةٍ نكونُ فيها أنفُسنا بعيدًا عن عيونِهم الحبيبة، ننهار ونُصبح كالرّماد، لا عمَدَ يوقِفُه على طولِه، ولا سقفَ يُخبِّئُ جوانبَ ضعفِه، هو المكشوفُ بلا حيلةٍ للفِرار من عُرْي روحِهِ المتألّة، أمام مَن يعنونَ له الأقلّ، ومن يستمعون له الْيَوْم أكثر، لا يحتاجُ بعدها أنْ يواجهَه في عيونِهم كُلّ لحظةٍ ينظرون إليه فيها، فهو يتركُ بعض أحمالِهِ لديهم ويُغادِر؛ يرتدي بعدَها حُلةً فضفاضةً تقي روحَه عوامِل الانكسار؛ ليعيدَ الكرَّةَ كُلَّما ضاقت عليهِ حُلّتُهُ وسنَحتْ لَهُ الفُرصة بذلك.

(أمّ العبد) تتأثّر ببكاء (سلمى)، وتحاول تغييرَ دفّة الحِوار، فقالت:

- لو أنّنا زُرناكِ في المدينة، وهو أوّلُ عهدنا بها، ألنْ تكوني لنا كما كُنّا لكِ؟ ثُمّ أنّ «الناس لبعضها» كما يقولون.. أليس كذلك؟

تهُزُّ رأسها موافقة، فأردفُ:

- يا صاحبة القلب الطّيب، اهنئي بقلوبٍ تُحبّك وتحيطُك برعايتها من كلّ جانب، فأنتِ وقلبُكِ نعمةٌ لا بُدّ لنا من شُكر الله عليها في كلّ حين.

يعلو صوتُ (سالم) مناديًا على (سلمى) من خلفِ الباب، تودِّعها (أمّ العبد) وتسمحُ له بالولوجِ لاصطحابها إلى منزله أثناءَ انسحابها إلى الدّاخل، كي يتسنّى لهما الحفاظ على حُرمةِ لحظةٍ كهذهِ غير مخدوشةٍ بعينِ شفقةٍ أو نظرةِ حزن. فتلك أقدارُ الله، تختارُنا ولا نملك خيارًا آخرَ غير التّسليمِ بها والصّبر عليها، واثقين بما يحملهُ لنا ربّ العِزَّة من ثوابٍ يسُرّ خاطرنا وزيادة في الدّار الآخرة.

في هذه الأثناء، تستلقي (مريمُ) على ظهرِها فوق سريرِها، والظّلامُ يُحيطُها، وجنبات الغُرفة؛ بالهدوءِ والغموضِ، مفتوحةَ العيون، تنظُرُ للسّقفِ، ووجهٌ واحِدٌ يُنيرُه، قمرها المضيء (رائد)، ذلك الشّاب الذي لم يتعدّ العشرين من عُمُره، يبدو هيكلهُ كهيكلِ بطلٍ أسطوريّ بعضلاتِه البارِزةِ المفتولةِ وطولِه الفارِع، كفتًى في السينما المصريّة بوسامتهِ ونعومةِ شعرهِ، واللَّيْل الغارِق في خصلاتِه، وكشيخٍ أزهريّ في أخلاقهِ وطباعهِ وخوفِه من ربِّه، وتُحدِّثُ نفسها:

«لا أُصدِّق بأنّني سأصبح زوجةً لـ (رائد) ابن عمِّي قريبًا، سأنالُ حُرِّيتي، ويكونُ لي الكلمةُ النّافذةُ في منزلٍ يحتويني وشخصيّتي وذوقي، سأضعُ بصمتي في كلّ زاوية، وسأجعلُ منه الزّوج المطيع الذي لا يرفُضُ لي طلبًا، بِجمالي سأمتلِكُ قلبَه وأُقلِّبه بين أصابعي كما أشاء، أميرةُ الأميرات

أنا، أُسلِّمُ نفسي لأميرٍ يستحِقُّني وأستحِقُّ الدّلال بين يديه، يا لسعدي اللّيلةَ بخطبتي لك يا (رائد)! إنْ كانت سعادتي بك تحرمني النّوم هذه اللّيلة، فكم ليلةً سيُجافي عيونك النّوم فيها لفرحتك بي والأشواقُ تقتلك كي أصبح في بيتِك فأُضيئه بوجودي معك فيه!»

تحتضِنُ مريمُ وِسادتها وتتنهّدُ، فتختِرق تنهيداتها هدوء الغُرفةِ، تدسُّ وجهها فيها لتهمسَ لها بحديثٍ سرِّي، لا يشهدُ عليه أحدٌ غير وسادتها المسكينة المعصورةِ بين أحضانها.

تحتضِنُ (ضُحى) نفسها وهي تسيرُ عائدةً إلى منزِل عائلةِ زوجها، تجُرُّ القدم إلى جِوار الأخرى، فهي ما عادت تُطيقُ أحاديث البشر السّاكنينَ فيه، فهمزاتُهم ولمزاتهُم عليها لِعدم قدرتها على الإنجاب بعد هذه المُدّة الطّويلةِ من الزّواج- خمسةُ أعوام- تقتُلُها، وتجعلُ منها طائِرًا منتوفَ الرِّيش مهيض الجناح، تختارُ النّأي عنهم فدومًا ما تجلِسُ في ركنٍ بعيدٍ عن أمّ زوجِها وزوجاتِ إخوتِهِ، تحيكُ شيئًا أو تُنهي عملًا وتأنسُ بِأفكارٍ تدورُ في رحى عقلِها دون توقُّف.

اليَوْم بالذّات تقتصُّ الأُرجوحةُ من حكايا العام كُلّه فتُنصِّبُ نفسها ملِكةً على عرش تفكير (ضحى)، وما كانت لتكونَ أخفّ وطئًا ولكنّها كانت تستطيع- رغم ذِكراها السّيئةِ لديها- أن تُغيّرَ دفّةَ الأحداثِ بإرادتها لتكون في صالِحِها، فتصنَع بها نفسها الجديدة ليس بامتطائها لها فحسب، ولكن بمجابهة مخاوِفها والاستفادة منها في إدارة الأزمات في حياتها كُلّها.

أخذتْ تُفكّر بينها وبين نفسِها:

«سأجلِسُ عليها أوّلًا، وما يُضيرُني في الجلوس على قطعةِ خشبٍ أُوازِن جسدي عليها، ومن ثَمَّ أمُدُّ ذِراعيّ إلى الأعلى، وأحتضِنُ بأصابعي الحبلَ الموصولَ بأعلى الشَّجرةِ، يبقى أن أتحكّم في حركة ساقيّ؛ فهُما كشِراعيْن لسفينةٍ في البحر، وبحركةٍ انسيابيةٍ بجسدي أخترقُ الهواء أو ربَّما يخترِقُ هو بطاقاتهِ جسدي؛ فيُعيد إليه الحياة من جديد.

وبدأ قلبها يرجو ويلهجُ اللِّسانُ معه بالدُّعاء:

«يا رياح التّغييرِ هُبِّي، يا ربّ الأربابِ كُن لي، يا سماءَ الخوفِ أمطري فرجًا، يا عُقدةَ النَّفسِ تزحزحي وتراخي وبعدها انكسري، وحرّري روحي وفكري من الخوفِ»

خوفٌ وقلقٌ شديدٌ يجتاحُني، تتصادمُ سيوفُ فِكري ليعصِف دويُّ صليلِها برأسي، زوجي قطعها.. أُرجوحتي.. عالمي.. صويحباتي.. أَانتهت حكايتي وغرامٌ قتل آهاتي!؟ أأسألُهُ أم أنتظر مفاجأتي مصلوبةً عند الشَّجرة غدًا صباحًا؟

إنْ سألتُه الآن فأنا أُفتّح العيون علينا، وعلى سرّ خبّأناه أنا والنِّسوة عمدًا بخوفٍ من قيودٍ جديدةٍ تدمي أيدينا وأرواحنا؛ وإنْ سكتُّ ذي اللّيلةَ؛ تصارعني أفكاري ومخاوفي وجنوني ساعاتٍ طويلةً، فلا أقوى على النّومِ أو الرّاحةِ حتّى شروق الشّمس.

كما أنَّني مازلتُ تلك الحائرة في التصرُّف اللائق الذي أُواجهُ به أيّ ردّ فعلٍ قد أجِدهُ من صويحباتي ساعة يكتشفنَ قطعها، وكيف لي حينها أنْ أُخفي غضبي وحُنقي على زوجي بما أنِّي سأكونُ حينها على يقينٍ بِفعلته؟ يا

لخُنقي عليهِ؛ ويا لَضعفي لمواجهته بأنّي من أوجدَ الأرجوحة هناك، ومجابهته بآمال النسوةِ فيها وأحلامهنّ التي تتحقّق بوجودِها، فكما حملتُ راية التغيير على عاتقي يومَها، لا بُدّ لي أن أحمي بياضها مِن أن يُمرَّغ في طينِ القمع والسّيطرة اللا إنسانيّة، وهيمنةِ الذكورة على أبسط مطالب المرأة في الحياة:

«وقتٌ مستقطعٌ لها، تجِدُ فيه مُتعتها، كي تجود بعطاءاتِها على جميع من حولها بنفسٍ راضية، دون خوف».

مازلتُ أذكُرُ قولَ زوجي على لسانِ جدَّتِه- رحِمها الله- تأكيدًا على قناعاته عن المرأة وتطلُّعاتها، وبأنه لا أحد يعرِف عنها مثل بني جنسها، وشماتتهُ التي تظهرُ جليَّةً في نبرةِ صوتهِ بأن «شهِد شاهِدٌ من أهلِها»، حين يقول:

- البنتُ تولدُ بجناحين اثنين، تتعلّمُ مع الوقت التّحليق بهما أبعدَ ما تستطيع، وعليك بقصقصةِ ريشهِ من حينٍ لآخر، كي لا تتمادَى في الطّيران؛ فلا يعودُ باستطاعتكَ إعادتها إلى حِماكَ مجدّدًا أبدًا.

فوضاي لا متناهية، وليلتي غائمة كما عيوني، إلّا أنَّني لا أستسلمُ ولا أنوحُ على ضعفٍ أُريدَ بي، أسيرُ رافعةً هامتي، وأطلب من الله العون. أتَراني مخطِئةً إن فعلت؟

(٧)
«الخوفُ المُسيطِر»

انتظارٌ مريرٌ اختلطَ بليلتي، وأنا التي نسيتُ زمنَ السّهر منذ أن كَبُر أولادي، وأصبحوا قادرين على الاعتماد على أنفُسهم، وقلّت عدد المرَّاتِ التي تزورهم فيها تلك الحُمّى الخانِقة التي كانت تجلِدُ بسوطِها أجسادِهم إنْ مرِضوا يومًا.

انتظاري لصباحٍ شمسُه لا تبينُ إلّا تحت ظِلِّ شجرةٍ، لهوَ انتظارٌ يُعلِّمني أن أخطو خُطوتينِ إلى الأمام أو بأنْ أتقهقر عشرةً إلى الوراء، وحدها ردّةُ فِعل النِّسوة قادرةٌ على لملمةِ خيوطِ اللُّعبةِ وتحريكِها على هوانا، على الرّغمِ من أنّ رياحنا شرقيّة، وقليلًا ما تحمِلُ الأمطار إلّا أنّ رحمة الله بنا على هذه البُقعةِ من الأرض حتمًا ماضية وقصّةُ مريم- عليها السَّلام- أكبرُ دليلٍ على ذلك.

حيثُ جافاني النّوم أستلقي مفتوحةَ العينِ وأُرخي السّمع، من بعد منتصف اللّيل؛ لا تسمعُ لسُكانِ قريتنا صوتًا؛ لأنّهم يغطّون في سُباتٍ عميق، يتركُ الكِلابُ مخابِئهم حينها ويُعلنون هيمنتهُم على الأرض، فيحتلّونها وحدهُم دون البشر، يزيدُ صوتُ نُباحِهم عُلُوّا وكثافة، يتكتّلون في مجموعاتٍ متماسكة، ليصُدوا أيّ خطرٍ يداهِمُ

ملكوتًا يظنُّون بأنّهم يملكونه، أيّ صوتٍ بالقُربِ منهم، كحجرٍ يُلقى، يُحرِّكُ ساكنهم ويُهدِّدُ جَمْعًا لِشملِهِم، لذلك اجتمعوا على ألّا يفرِّقهُم صوتٌ، وعَلتْ أصواتُهم أكثر، وتهديداتُهم بالهجومِ تزيدُ أكثر، إذا ما اقتربنا من دوائرِهِم، تفوحُ من أجسادنا رائحةُ الخوف والضعف، وهكذا الجماعةُ تغلِبُ القوّة.

ها هو صوتُ الأذان يتهادى على مسامعي مُعلِنًا فجرًا جديدًا ليومٍ جديد، ولا سبيل لي سوى النُّهوضِ من فراشي، وأداء حقِّ ربِّي عليّ بِالصَّلاة في وقتها، علّني أفوزُ برزقٍ وافرٍ من عزيمة وقوةٍ وسداد رأي.

أقفُ إلى جوارِ الفِراش، ومن ثمَّ أتحرّكُ مُثقلة الخطوِ؛ أكادُ أتخبّطُ في مشيَتي من النُّعاس ووجعِ الرأس، لأنظُر أمامي فأجده ينظُرُ إليّ، ها هو يُدخّنُ سجائِره، وينفُثُ دُخانها في الهواء، جالِسًا على الطرفِ المُقابلِ من السرير، يسعُلُ ويلقي تحيّةَ الصَّباح، ويتساءل:

– «الله يصبّحِك بالخير يا (أمّ محمد)، ماذا دهاكِ، هل أنتِ مريضة، أم ماذا؟

– «صباح النُّور يا (أبا محمد)، لا لستُ مريضة، ولكنْ لم يغمض لي جفنٌ اللّيلةَ الماضية ولا حتَّى للحظة!

– لِمَ؟ ما الذي حدث لكي يهرب النومُ من عيونك؟

– لا شيء، ربَّما فنجان القهوةِ في وقتٍ متأخّرٍ عند أمّ العبد أثّر عليّ، فاستيقظتْ له مُرغمةً خلاياي، لا عليك سأستعيدُ نشاطي

حالما أعودُ من جلب الماء بتأثيرِ الطّبيعةِ الخلّابةِ والهواء النّقي على السُّهول ومن بينِ الأشجار، سأُعدُّ لك طعامَ الإفطار حالَ أنتهي من صلاتي، وأُعدّ كوب قهوتك بسُكرها الزائدِ خلال دقائق، انتبه من التّدخين على معدةٍ خاويةٍ، ألم يقُل لكَ الطبيبُ ذلك؟!

– أقيمي صلاتك ولا تُكثري الحديثَ عن صِحّتي، يا امرأة.. فأنا أدرى بها منكِ!؟

قالها، وأخذَ يضُمُّ شفتيه مُقبّلًا فمَ سيجارتهِ ساحِبًا نَفَسًا عميقًا منها، تشتعِلُ هي في المقابِل بينَ أصابعِه شوقًا للمزيد، يحرِقُها وتحرِقه بمنتهى العدْل، ويظِلمُ نفسه لإضرارِهِ بها في استمتاعٍ بغيضٍ إلى نفسي.

لستُ أغارُ منها وهي تكشِفُ ساقيها البيضاء طوال الوقتِ لتقومَ بإغرائه بملامستها ولكنِّي أتقزّز ممّا يلحقُه منها من أثرٍ في فمِه واسوِدادٍ ينالُ شفتيه وأصابع يديه، حتَّى أنفاسُه لم تسلم منها، أدعو ربِّي في سِرّي بأن يُخلِّصهُ من فتنتِها، وأَحني رأسي في أسًى، أخشى أن يلحظَه وأبدأ شعائر الوضوء وإقامة الصلاة.

اجتمعتُ والنسوةَ أعلى التّلةِ الخضراءِ المُطلّةِ على بيوتنا، والتي اعتدنا الذّهاب منها لجلب الماء، ابتساماتٌ توزّعُ لِمرْآي، وخجلٌ وعارٌ يكتنِزُ دواخلي، فأيُّ مفاجأةٍ تلك التي تنتظِرُنا جَمِيعًا عند الشّجرة!

أحيّيهُنّ بهدوءٍ على غير عادتي، أصطنِعُ البسمةَ على شِفاهي، وأُقاوِمُ الحديث عن نفسي مُطلقًا. فتبدأ (ضُحى) بالحديثِ بحماسةِ الملهوف:

- اليَوْم أنا مستعدّة لمواجهة جُبني وخوفي من امتطاءِ الأُرجوحة، فقد قمتُ بدراسةِ كافيةٍ لذلك.. وتطلقُ ضِحكةً خجولة على وقْع كلماتها التي بَدَت سخيفةً في نظرها، فأيُّ دراسةٍ تلك التي تحتاجُها لتمتطي أُرجوحة!؟ ولكنّها حقّا احتاجت إلى ذلك، فالخوفُ يكبحُ زمامَ التّفكير كما الفِعل، وها هي تُقرِّر بملء إرادتها تغليبَ العقل وتتويجه بالفعل.

تردُّ عليها (سامية):

ستكونين الأولى في امتطائها اليَوْم، وللجميعِ عندي مفاجأةٌ بسيطة قد تسعدُكُنّ، أتريدون معرفتها؟ كم تدفعون في المُقابل؟

تدافع الصّويحباتُ لمعرفةِ أخبار (سامية) ومفاجآتها السّارة، فهذه تمسكُها من الكتف وتجُرّها إليها والأخرى تطالبها بالقول الآن وعدم انتظار مقابل، والثّالثة تسحبُ جرّة (سامية) وتجري بها بعيدًا، كي تخبرهم فتُعيدُها إليها حين تفعل!

- لا داعي لكُلِّ هذا، فسردُ الأخبار أسهلُ فعلٍ بالنسبة لي، كما يقولون عنّي «مسحوبة من لساني»، فلا أسرار أحتملُ إخفاءها، إلّا..، وغمزتني بعينها اليُسرى، وجلجلتْ بضحكتها ترجُّ بها آذاننا..

أبعدَتْ الجميعَ عنها، ودسّت يدها في جيبِ ثوبها، أخرجتْ منه قطعة قماشٍ مطرّزةً مطويةً، بدأت بفكّها وعرضها علينا، قائلةً:

- وجدتُ هذه القطعة لديّ مطرّزة بتطريزنا الفلّاحي

الفلسطيني، كنت قد حِكتُها وطرّزتُها منذُ فترة كوسادة ولكنّي نسيتُها ووجدتُها بالأمس في دُرجي، وراقت لي كـرِداءٍ لقاعدةِ أُرجوحتنا الخشبية فهي بالصُّدفةِ على مقاسها كما أظُنّ!

تعرِضها رافعةً إيّاها لكي تراها النّسوةُ في الخلف، يبدأن بالتّصفيقِ مبتهِجات بها إلّا أنا، قلبي يتنافضُ كعصفورٍ أصابَهُ البلل بعد المطر، يا ويحَ قلبي كيف يحتمِلُ رؤية الفرحةَ في عيونهم بهذا الحجم، فتوأدُ وتتحوَّلُ حُزنًا وقهرًا بعد قليلٍ، اخترتُ الابتعاد يوم زرعتُ الأرجوحة في الشَّجرةِ لهُنّ، وما سمحتُ لنفسي برؤيةِ مولود السّعادةِ يلمعُ في عيونهنّ حينها، هربًا من المواجهة، واليوم أراها طِفلةً وضّاءةَ المحيًّا كَبُرتْ بيننا، وسيحينُ قريبًا وأدُها ظُلمًا وجورًا..

ملأنا الجِرار وعدْنا آفلينَ، تتساقطُ من النّساء مياهُ الجرّة غير مبالياتٍ إلّا بالوصولِ إلى راحتِهن المنشودة وتعميدِ الأرجوحة كَمتعتهنّ الرّسمية في قريتنا، وعليهِ؛ فإنّهُنّ يُلبِسونها ملابس الفخر والانتماء للأرض، كانتماءِ نساء فلسطين المناضلات إليها، وحفاظهنّ على إرثها التّاريخيّ مهما تعاقبت عليها المُلمّات.

أمّا أنا، فخطوتي نحوها ثقيلة، وماءُ جرّتي لم يكُن للإراقة !

(٨)
«كسْرُ القيد»

السَّماءُ تملؤها الغيوم والشّمسُ هاربةٌ خلفها استعدادًا لعاصفةٍ قادمة، الظلامُ يُخيّمُ فجأة والطّيورُ تتركُ أعشاشها إلى وجهةٍ واحدة لستُ لها أبين. لستُ وحدي أستشعِرُ العواصفَ قبل هبوبِها، هذه الطُّيور تستشعرها معي فتفرُّ حيثُ تعلمُ أين تجِدُ حضنًا دافئًا وسقفًا آمنًا، مَن لي وسقفي مكشوف وليس لي من الدّفء في أحضانِ قلبٍ من نصيب!.

الأمطارُ تهطُل والأرضُ الترابيّةُ سريعًا ما تتحوّلُ إلى طينيّةٍ تغوصُ فيها الأقدام فتتّسخ وتُعطِّل الحركة أكثرَ فأكثر. مَن قال إنّني أُريـدُ أصلًا الوصول إلى الشَّجرة والأرجوحةُ مقطوعةٌ وصدمةُ صويحباتي بعدم وجودها حتميّة؟ ها هي الأصواتُ تعلو من جانبِ الطَّريقِ حيثُ تستقِرُّ الشَّجرة، سبقنني إليها اليوم كما سبقتْني أخبارُها بالأمس، أصِلُ إليهنّ وهُنّ يتلفّتنَ حولهُنّ بحثًا عن أُرجوحتي، أصواتُهُنّ المرتفِعة وبعضُ الكلمات التي أحسنتُ استبانتَها على كثرتها؛ تشي بغضبِهنّ البالغ، وحُنقِهنّ على الفاعل.

فـ (سامية) تصرُخ:

- أُقسمُ بأنّني لم أحدِّث أحدًا عنها، أو عن مكانِ وجودها، كيف وصلوا إليها إذًا؟

و(ضُحى) تندِبُ حظّها البائس قائلةً:

مصابةٌ بالنّحس طوال عُمري، وحين آمنتُ بأنني أستطيعُ تغيير حظِّي ومجابهة مخاوفي قُطعتْ الأُرجوحةُ عمدًا كي لا أحلم كثيرًا بذلك وأستسلم لَهُ مجدّدًا!

أصواتٌ كثيرةٌ تملأ المكان، غضبةٌ محدودة وقهرٌ لا حدود له، أيادٍ على رؤوسٍ تكادُ تُلامسُ الأرض حُزنًا، وعيونٌ حائرة تبحثُ عن فرَحٍ كان ينبُتُ في القلوبِ فيُزهِرُ تحت هذه الشَّجرة، فأيناهُ اليَوْم؟ أيناها تلك الضّحِكاتُ المُختَرِقةُ للآذان، وأيناها شمسٌ كانت تسطعُ في أرجاءِ المكان فتُضاءُ لها أرواحٌ صالحتْ العتمة على مرِّ الأعوام؟

أسمعُ صوت (أُمّ فايز) من بعيد مُناديًا اسمي، لا أستطيع في خِضمّ هذا كُلِّه أن أنطِقَ حتّى بكلمةٍ.. تنطِقهُ مجدّدًا.. وفي حالة ذهول أترُك المطر يُبلِّلُ جوارحي لعلِّي أفيقُ وأقومُ بردّةِ فعلٍ مناسبةٍ لعِظمِ الحدث، ولكنّني لا أستطيع، حتَّى شعرتُ بيدٍ تُربِّتُ على كتفي ومن بعدُ تهُزُّني:

- يا (أُمّ محمد) ماذا دهاكِ، إلى أين سَرحتِ بِفكرِك والكُلّ سبقنا نحو الأرجوحة وأنتِ هُنا كالمُثقلِ بالهموم لا يُراوِحُ مكانَه؟

- نحو الأرجوحة؟ أما زالت هُناك؟

في ذهولٍ أنظرُ إلى السَّماءِ إذْ بها صحوة لا غيوم فيها، الأرضُ جافّةٌ تحت قدمي والأجمل من هذا كُلُّه أُرجوحتي قائمةٌ تتمايلُ أمامي فتفتنني من جديد!

- مازالت هُناك؟ ما الذي تقولينَه؟ وما الذي سيحدث لها بين ليلةٍ وضُحاها يا (أمّ محمد)؟

- لا عليكِ، مجرَّد كلام، لا تُعيريهِ وزنًا، هيَّا بنا نشهد أولى انطلاقات (ضُحى) عليها، علَّها تُلْقِي كُلّ مخاوِفِها تحت أقدامِها وتعودُ بدونِها، هيَّا بنا..

تُلبِسُ (سامية) القاعدة الخشبيّة للأرجوحة رداءً مطرّزًا فتبدو كعروسٍ جميلة، تفردهُ عليها وتشُدُّ خيطًا سميكًا من نهايتيه- كانت قد زرَعتْها في أطرافِها- وتربطهُما ببعضِهما الآخر بشِدّةٍ بعد أن تُزمَّ جوانِب القماشِ حولها فتُصبِحَ وكأنّها جزءٌ منها، فتُضيف بذلك لشكلِه بهجةً تتناسبُ مع روحِها الحيّة.

تُزفُّ (ضحى) من قبَلِ النِّسوة كعروسٍ هي الأُخرى، فتتعالى الزغاريدُ تشجيعًا لها. تضحكُ بِخجلٍ كطِفلٍ صغيرٍ يُحاوِلُ النُّهوضَ على قدميه، وبعد جهدٍ جهيدٍ يفعلُ. تخطو (ضحى) ابنتي نحو الأرجوحة وقلبي يخطو معها مُحاوِلًا سندَ قلبِها الضّعيف، تجلِسُ، ترفع ذِراعيها لتحتضِنَ الحبلَ بكامِلِ كفّيها فهي مازالت لا تثِق بغدرِ الأرجوحة، فلِزامًا عليها التثبُّت بحبالِها بِقُوَّة، فهي الشّيءُ الوحيد

الذي بإمكانها الإمساك به، الآن بقي أن تدفعَ بقدمِها الأرض وتوازن جسدها عليها فَتنساب بين النّسماتِ بِعطرِها جيئةً وذهابًا.

تتجمّدُ أقدامُها في الأرض، تخافُ الوقوع، تنظُرُ إلينا فنبتسم لها، تردُّ البسماتِ بإشاحةِ نظرها صَوبَ قدميها، وتأمُرُهما بالدّفع.. فلا تُحرّكا ساكنًا.. تعودُ للتفكير.

- ستدفعين الأرضَ التي سقطّتِ عليها صغيرةً فآلمتكِ، وستدفعين لحظات الحُـزنِ التي تآكلتْ لها روحُك عمرًا فائتًا فأتعبتكِ، وستهزِمين بِها كُلّ كلمةٍ قاسيةٍ وُجّهتْ عن قصدٍ إليكِ، ستهزِمين صمتكِ حين احتاج قلبُك الكلام، وستغلبين حديثًا تكاثر في الوِجدانِ فأضعفتهُ قلّةُ الكلام.

دفعةٌ بقدمك تُقرِّبُكِ- يا نفسي- من السَّماء، والسّماءُ صفاءٌ ونقاءٌ ودعواتٌ مستجابات، طيورٌ وغيومٌ تسبحُ في الفضاء، السَّماءُ نعيمٌ لا ينقطِعْ، وحُبّ يغمُر القلب فلا يُحيطُه سورٌ ولا بابٌ يُغلقُ له، السَّماءُ نوافِذُ مشْرَعةٌ بلا عددٍ على النّسيمِ العليل والبحر المتموِّج ماؤه؛ تُداعِبُ الوجناتِ عِشقًا، السَّماءُ علوٌ ورِفعةٌ ومجدٌ باقٍ ومَنَعةٌ، فأيُّ شَيْءٍ يمنُعكِ من لمسِها أو مُحاولة مسِّها وتقبيلِ ثغرِها، يا نفسي؟!

هنا دفعتْ (ضُحى) الأرضَ بقدمِيها فارتفعت قليلًا في الهواء، وحين ارتدّت بالقُربِ من الأرض ضربتها من جديد وتماسكت، بدأت قدماها بالتّجديف والجسدُ بالمراوغة، فكُلّما طوت ساقيها

تحتها سحبت جسدها للأمام بذِراعيها، وكلّما فردتْ ساقيْها أمامها للأمام أرجعت جسدَها العُلويِّ إلى الوراء راخيةً ذِراعيها، ومع الوقت علَتْ أُرجوحتها كما ضحِكاتها، وسقطَتْ دمعةُ فرَحٍ من عينيّ أنا، وغمرتْ الفرحةُ القلوب انتصارًا لإرادة (ضحى) على الخوفِ وكسرتْ قيدهُ عليها.

نعودُ خِفافًا مرّةً أُخرى، وأنا التي ظننتُ بأنّ أُرجوحتي وُئدت؛ إذا بها تقومُ بدورها البطوليِّ في حياتنا من جديد. ها هي روحي تُرفرِفُ في الهواءِ كريشّةِ طائرٍ تحرّرت من جناحٍ وتركتْ للنّسيمِ حريّة احتضانِها لأطول وقتٍ مُمكن حمايةً لها من السّقُوط.

وحين قاربتُ على الوصولِ إلى الدّار، بدأتُ ألومُ نفسي على خاطرٍ أدَنتُ به زوجي ودليلٍ اخترتُ به إلصاقَ تُهمةٍ به لا أساسَ لها من الصِّحةِ! أنا الُمغرمةُ بالتّفاصيل أختلِقُ حكايةً في عقلي تارةً، أغضبُ لها وأثور، أحزنُ وقد يملؤني بها الحبور، حياتي ممتلئةٌ بالتّفاصيل على الرّغمِ من وتيرتِها الواحدة في ظاهِرِها، فما يراهُ غيري تافِهًا أراهُ عظيمَ الحجمِ يحتاجُ تمحيصًا وتفكيرًا زائدًا، كم تُرهقني التفاصيل وأُرهقُ مَن هُم حولي بها، إلّا أنَّني بها أكثر حيويّةً وجاذبيّة ما دمتُ لا أؤذي بها أحدًا.

ألِجُ إلى المنزِل وإذا بزوجي يجلِسُ مكانَه في صحنِ الدار، ورفيقاتِ خلوتِه الدّائمات يتكاثرنَ كَرمادٍ في منفضةِ السّجائر، نهايةٌ

يتوقّعنها مع اشتعالِ أولى النّظراتِ بينهُ وبينهُنّ، وصولًا للغرامِ والقُبلِ فالموتِ حبًّا، ولكنّهُنّ لا يملِكن سوى التّسليمِ والانصياعِ الكامل له.

أُلقي عليه تحيَّتي فيرُدّها، وأنزوي مُحدّثةً نفسي:

«لا تهمُّني بِـشَيْءٍ تلك الحبالُ المشنوقةِ بالأمس عند سلّةِ المُهملاتِ، لأسألهُ عن مصدرها اليَوْم، مادُمتُ قد تأكّدتُ بأنَّها لا تمُتُّ لأرجوحتي بصلةٍ من قريبٍ أو بعيد، وعليهِ فإنّه لا يمكنني الاعتذار عن خاطرٍ ظلمتُ زوجي فيه، فخوفي على أُرجوحتي كان المُبرّرَ الوحيد لذلك، والسّكوتُ في هذه الحال أسلمُ وأأمنُ لها.

(٩)
«موسمُ الزّيتون»

يمُرُّ علينا الصّيف بحُلوِه ومُرِّه، وأُرجوحتُنا فيه قائمةٌ ما هتك سِرَّها رجُلٌ، فبقيَتْ واقفةً مرفوعة الهامةِ تصنعُ الأعاجيب في أرواحنا، يُمثّلُ دورُ كُلّ واحدةٍ منّا عليها؛ عادةً صباحيّة جديدةً مرتبطةً بجلب الماء من النّبع في أطراف القرية، كما أنّ لارتباط الأرجوحةِ بجلبِ الماء مغزًى مهِمًّا في حياتِنا؛ ففي قطرةِ الماء حياةٌ للجسد، وفِي اعتلاءِ الأرجوحةِ حياةٌ للأرواحِ المُنهكةِ كأرواحنا؛ لتجتمع لنا في مشوارٍ واحدٍ كُلّ معاني الحياةِ من البحثِ عن أسباب البقاء والسّعي من أجله، كذلك البحث عن سبيلٍ لملءِ الرُّوح بمقوِّمات إحيائها والحِفاظ عليها خضراءَ منتعِشة قدر المستطاع.

بدايةُ الخريفِ تعني لنا عُرسًا وطنيًّا على هذه الأرض، أرضُنا التّاريخية التي حملتنا على أكتافِها جيلًا وراء جيل؛ وما كَلّت من حِملِها الثّقيل أبدًا، أرضُنا المِعطاءة، كُنّا ومازلنا نَهَبُها بعضًا من عرَقِنا والقليل من جهدِنا فتُكافِئنا بخيراتِها الكثيرة كنبعٍ من حُبٍّ لا ينضب، الأرض أصلُنا الثّابتُ وأُمُّنا الوفيّة التي لا يخذِلها أولادُها، مهْما طال بها وبهم الزَّمان.

فمِن بداية شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) نتأهّبُ للاحتفال بعرسنا الوطني والتُّراثي «موسم الزّيتون»، هذا الذي ندعوهُ مجازًا «أيّام الزّيتون»، فيها؛ يجتمعُ أفراد الأُسرة جَمِيعًا، صغيرُهُم وكبيرُهُم لينجزوا مهَمّةً واحدة، قطفُ ثِمار الزّيتون عن أشجارِه التي باتَتْ تُغذِّيهِ وتسقيهِ عامًا بطولِه بمساعدتِنا ورعايتِنا لها تحت أعيُنِنا.

شجرةُ الزّيتونُ دليلُ عُمقِ جذورِنا على هذه الأرض، نزرَعها ونأكل من حصادِها جيلًا وراء جيل، من حبّاتِها نتذوّقُ طعم الأرض، من زيتها الذي نعصِرُهُ نتعلّمُ الصّبر والجَلَد، تدهنُه الأمّهاتُ على أجساد صغارهِنّ، من ثمَّ يعرِّضونهُم لأشعّة الشمسِ قليلًا، لاعتقادهنّ بمفعوله في قوّة الأجساد وعظام الأبناء، ممّا نراهُ جليًّا فينا وفي رجالنا الأقوياء الأشدّاء، الذين تشبّعت عِظامهُم بزيت الزيتون منذ الصِّغر، ولنا في شجرة الزّيتون مآربُ أخرى، فمِن أخشابِها أيضًا؛ نصنعُ المسابح والقلائد والتُّحف، نُحوِّلُ صمودَها إلى ذكرى تُخلِّد عطاءها وفناءها من أجلِنا حُبًّا.

صباحاتُ قطف الزّيتون دائمًا مُختلفة، نتجهّز فيها كأنّنا ننتوي السّفر، فمزارِعنا تبعُد قليلًا عن بيوتنا، نحتاجُ فيها عُدّةً وعتادًا «زادة وزوَّادة»، لتتمَّ المَهِمّةُ بنجاحٍ وسهولةٍ قدر المُستطاع، عربات تجُرُّها الحميرُ تَكُونُ دائمًا عونًا لنا لنحمل عليها حاجيَّاتنا ذِهابًا كما في طريقِ رجعتنا. فنحتاجُ السّلالِمُ لنتسلّقها وصولًا للثّمر، وبعضُ «الحصائر»

لنفرِشها تحتَ شجراتنا لكي تحتضِن ما وقع منهُا على الأرض، وكذلك لكي نفرزَ جيِّدَه عن سيّئ حبّاته، وسلالٌ لنجمع حصاد غلّتنا فيها، وعصيّ نهُزُّ بها الفُروع هَونًا تحريضًا لحبَّات الزّيتون كي تنزِل كَالمطرِ على رؤوسنا من الشّجر، زادٌ للفطور وآخر للغداءِ، فيومنا سيطولُ هُناك ولن نستطيع العودة قبل الغروب بوقتٍ كاف.

ولأنّ موسمَ الحصاد واحدٌ للأهالي والمزارعين الذين يملكون «بيّارات زيتون»، عادةً ما يكون وقت قِطافهم متزامنًا مع بعضهم الآخر، فيتَشاركون الرِّحلة ويهِبُّون لعمليّةِ تخليصِ الشجر من حملِها المُضني بمساعدة بعضهم البعض، لتبدأ بعد ذلك عمليّةُ جنّيِ الأموال من خلال بيعِها بسعرٍ يتناسبُ مع كميّةِ المحصول وجودتِه، التي يتنافسون عليها لكي تباعَ بأغلى ثمن ويقومون بالاحتفاظِ ببعضه كمئونةٍ للعامِ القادِم من الزيت والزيتون.

ها هي (سامية) وزوجُها وأولادُها؛ كبيرُهم وصغيرُهُم، حتىّ أُمّها تضعُ شالها الأبيض على رأسها مُرتديةً ثوبها، متعكّزةً بعصاتِها، تسبِقُ ابنتها السّبّاقةَ في كلّ شيء، فأبتسِمُ في الخفاءِ، أنَّها لم تأتِ به من بعيدٍ، فأُمُّها على كِبر سنّها تتنافسُ للوصولِ لشجراتِها المُباركة أوّلًا.
ها هي (ضُحى) وزوجُها وأمّه وإخوتُه، وزوجاتهم، يضعُ كُلّ واحدٍ منهم أغراضًا تساعدُهم في القطف داخِلَ العربة التي استأجروها لهذا الغرض. كذلك (أُمُّ العبد) وابنتُها مريم وأولادُها الذّكور وزوجها

يتسارعون في وضعِ السلالمِ وبعض الكراسي وعصيانًا من الخشب، أواني للطبخ وطعامٌ وفاكهة في صوانٍ نحاسيةٍ عميقة والكثير من خبز الطابون الجاهز من الأمس استعدادًا لهذا اليوم المُبارك.

كذا فعلتُ أنا و(أمّ فايز) وبقيّةُ أهل القرية، إلّا (سلمى) المسكينة، أقعدها مرضُها كما أنّ زوجها لم يحضُر حرصًا منه على خدمتها، وعدم حاجتِه للذّهاب فقد أرسل عمّالًا يقطِفون زيتون الشَّجر الذي اشترى قطعة أرضٍ تحويه، فهو ليس من القريةِ ولم يعتد الزِّراعة والحصاد يومًا.

حجيجًا خرجنا إلى بقعةٍ مُباركة، نلتقِطُ نورًا من أرضِها الطّاهرة الصّامدة، هلّا صبَرنا مثلها؟ فزيتونُنا، نِتاجُ صبرٍ على أرضٍ ماؤها قليل، شتاؤها باردٌ وصيفُها جافّ وحار، ولولا عوامِل كهذه ما اكتمل نموّهُ وأزْهرت شجراتُه، وأنتجت نتاجًا مباركًا ملائمًا لاحتياجات أصحابِه.

لاحتِ المزارعُ متلألئةً تحت أشعّةِ شمس الصَّباحِ الأولى فهتفنا معًا أهازيج حفظناها صِغارًا احتفالًا بمواسم الزّيتون عامًا بعد عام:

«على دا الــعـونـا وعلى دا الــعـونـا ..
زيتون بلادي أجمل ما يكونا
زيتون بلادي واللوز الأخضر ..
والميـرميه وما بنسى الزعتر

وأقراص العجّه لما تتحمر ..

ما أطيبها مع زيت الزيتونا»

تمايل الأطفالُ مبتهجين بالأهازيج وتشابك بعضُ الشّباب يدبكون عند سماعهم لها، يتمايلون بتناسُقٍ مدروس، يضربون بأقدامهم الأرض تأكيدًا بأنَّها لهُم وبأنّهم ثابتون عليها إلى ما شاء الله، ونحنُ نُصفّق ونطلِقُ الزّغاريد ابتهاجًا بإنجازنا هذا العام، وتشجيعًا لنا على الجهد الذي سنبذِلُهُ في القِطاف، كي نراهُ أمامنا محصولًا وافرًا عظيمًا.

وبعد تناوِل طَعَامِ الإفطار معًا على الحُصُر التي بسطناها تحتَ أشجارنا؛ بدأنا بالعمل، ها هي (سامية) مجدّدًا أوّل الصّاعدين على السُّلّم تصدحُ بأعلى صوتها: بسم الله الرّحمن الرَّحِيم، وتقطِف أولى حبّات عيوننا زيتونًا ناضِجًا بهيًّا، تتوالى الحبّات الملقاةُ على الحصير هنا وهُناك، وتتوالى معها الأهازيجُ وأفراحُ الأطفالِ وهم يتسابقون للجري واللّعب، وأحيانًا المساعدة بما تستطيعُ أيديهم الصّغيرة من فعل.

بدأ النِّسوة بالتّباري بعدها بقول أمثال شعبية تدلّ على أهميّة الزيتون وزيته في الحياة اليومية، فبدأت (أمّ فايز):

- أستطيع قولَ الكثير من الأمثال عنه، أتعرفون هذا المثل «كُل الزّيت وناطِح الحيط»؟

أردّ عليها:

- طبعًا أعرفه، فكم مرَّة أكلتُ خبزًا مغموسًا بالزّيتِ وحدهُ،

بسبب هذا المثل! أضحكُ وأغمزُ لـ (ضحى) كي تُخبرنا مثلًا تعرفه فقد حانَ دورُها. تُفكّر وتُفكّر من ثُمَّ تقول:

- جدّتي رحمها الله كانت دومًا تقول: «أيّام الزّيت، طُول الخيط»، كنايةً عن طول اللّيل وقصر النّهار فيه! وأنت يا (مريم) ماذا تحفظين من الأمثال القديمة؟!

تجيب عروسنا مريم ابنة الأربعة عشر ربيعًا: ما لي ومالُ الأمثالِ وقطف الزيتون، أنا لن أُتعب نفسي بعملٍ شاقّ كهذا في المستقبل أبدًا.

تردّ أمّ (سامية) بغيظٍ:

- هكذا أنتُم الأجيال الجديدة لا تريدون سوى الرّاحة، إنْ لم تحرصوا أنتم على زراعة الزيتون والحفاظ على الأرض التي تحتضننا، وتوارثناها جيلًا بعد جيل؛ فسيضيع منَّا كُلّ شَيْءٍ، ولستُ أُبالغ! هذه أرضنا المُقدّسة، بسواعدِنا وسواعد أبنائنا؛ تبقى لنا برغم الطّامعين.

نفضتُ يدي واستويتُ قائمةً كي أبدأ بتحضيرِ طعام الغداء، فبحُكم شُهرةِ طبق المقلوبة التي أصنعه بيدي، أوكِلتْ إليّ مَهِمّة إعدادِه بين أشجار الزّيتون، على أنْ تقوم بعض الفتيات بتجهيز حاجيّاتِه معي وإعداد السّلطة. المقلوبة، طبقُنا الفاخر الذي يحوي الدّجاج المسلوق وشرائح الباذنجان، شرائح البصل المحمر وقليلًا من فصوص الثّوم المقليّة، المرصوصِ في قعر الوِعاء وفوقها يوضع الأرزُ المنقوع قليلًا، ويغمر الجميعُ بمرَق الدّجاج، ومن ثُمّ يضافُ

إليه الملحُ والفلفل الأسود والبهارات، ويوضع على النار حتَّى يتشرّب الأرز المرق وينضج.

عند التّقديمِ يُقلَبُ ما في الوعاء في صينيّةٍ دائريّةٍ كما هو؛ لنرى الدّجاج والباذنجان المقليّ؛ مرصوصًا أعلى هضبةِ الأرز المقلوبِ مُزيّنًا طبقنا التراثيّ، ومن هنا جاءت تسميتُها بهذا الاسم. يا ليتكم تعلمون كم أسعد بهم وهم يتلذّذون بطعمها مطبوخةً لهم بيدي!

فرشْنا حصيرة بعد تنظيفها لتكون محلّ اجتماعنا للغداء بعد يومٍ طويلٍ وشاقٍ من الجدّ والعمل فوق الأشجار، وتحتها بصُحبة كنزنا من الزّيتون. نظرةُ رضا من الجميع كانت كلّ ما أنتظره من هذا الجمع الكريم، فكان لي ما أردتُ وأكثر.

فصغيرتُنا (زهرة) تمضُغ الطَّعَام في فمها الصغير، وتتلذّذُ به قائلةً:

– هذه المقلوبةُ أشهى من تلك التي تصنعها أُمِّي! لتلكزَها أُمّها في كتِفها غيظًا منها، على إثرِها تُطأطِئ (زهرة) رأسها بخجلٍ وتقول:

– ماذا فعلتْ.. ألم أقُل الحقيقة! أم تُريدينني أن أكذب؟

(١٠)
متاعبُ الحياة

بعد أنِ انتهينا من القطاف لهذا اليَوْم، قمنا بلملمةِ سلالِنا وأغراضٍ استخدمناها هنا في مهمّتنا المُقدسةِ هذه، واضعين إيّاها في العربات، وحاملين بعضها ممّا خفّ وزنهُ بأيدينا، وشرعنا في الحركة قبل أن تعُمّ العتمةُ صفحةَ السَّماءِ بعد الغروب.

في طريق الرّجعة بدتِ الأصواتُ أقلّ حماسةً ممّا كانت عليهِ في الصَّباح الباكِر، والهِمّةُ أقلّ، فجُهد اليَوْم ألقى بظلالِه على الجسد المُنهك والأصوات المُتعبةِ من كثرة الحديث والغناء. إذ بصوتِ (زهرة) يقطَعُ ذلك الهدوءَ الرّابِض بيننا، وهي تجري مع الفتيات على الطّريق، مشيرةً بأصبعِها ناحيةَ النّبع:

– هذا هو النّبع الذي أخبرتُكنّ عنه، فأُمّي والخالاتُ يجلِبنَ الماء كُلّ يومٍ من هنا، ومن ثمّ يمشون في هذا الاتّجاه ليختبِئنَ في ظلّ شجرةٍ هناك، فهُنّ يلعبن بأُرجوحةٍ معلقةٍ في فرعٍ سميكٍ من فروعِها، ويتركونني أبكي طويلًا؛ حتّى يعطونني دورًا عليها، ولكنّني حين أمتطيها أنسى كلّ أحزاني، فهُم يدفعونني فأطيرُ في الهواءِ كعصفورٍ جميل.

فيردُّ الأطفال من حولِها:

– نحنُ عندنا أرجوحةٌ بجوار منزلنا، ونطيرُ عليها وقتما نشاء..

– هذه أرجوحة سحريّة، تضحك لها أُمِّي إنْ ركِبتها وتجعلُها سعيدة حتَّى بقيَّة الْيَوْم وخالاتي يضحكنَ حين يركبْنها، اسألي أُمّك إنْ كُنتِ لا تُصدّقينني ستقولُ لك إنَّها حقًّا مسحورة!

وتشُدُّ أُمّها من كُمِّ فُستانِها وهي تصرخ بسعادة:

– أليس كذلك يا أُمِّي! ماما.. ماما.. أليست أرجوحتكنّ مسحورة؟!

كلماتٌ بريئة؛ اعتمرتْ في قلب فتاةٍ صغيرةٍ لا تعرفُ الخداع، فمُها الصّغير لا يعرِف حجم القيود التي يتعرّضُ لها الفتيات في مُقتبلِ العُمر؛ ويبْقينَ حتى يوضعنَ على جانبِهنّ الأيمن في نومتهِنّ الأخيرة. ذهولٌ وخوفٌ رافق قلبي ساعةَ سماعي لكلماتها الصّادِقة والعميقة، كم أجدت الوصف يا بُنيّتي بقولِك إنَّها أُرجوحةٌ مسحورةٌ، وكم أخافُ ردّة فعلِ أزواجِنا بسماعهِم قولكِ هذا.

«اللّهم لطفكَ بنا، وبسعادتنا الصّغيرة»، قالها قلبي وامتنع لِساني عن الإفصاح بأي شَيْءٍ آخر..

لكزَتها أُمّها مجدّدًا، وقالتْ:

– عن ماذا تتحدّثين يا صغيرتي؟ خيالُك واسِعٌ هذه الأيّام!

– ليس خيالًا يا أمّي، ألم تأخذيني معكِ إلى هناك حيثُ الشَّجرة والأرجوحة تتدلّى منها؟ ألم تمتطيها وتضحكي؟ ألَم تعودي...

حاولت الأمُّ وضعَ كفِّها على فمِ (زهرة) الصَّغير لكي تمنعها من إكمال حديثِها، فيسمعها الأزواج ويكون لهم تصرُّفٌ آخر معهُنّ، ولكنّها هرَبت من تحتِ ذِراعها مُكملةً حديثها:

- ألم تعودي سعيدة جدًّا فضممتِني إليكِ بضع مرّاتٍ بالنّهار! لِمَ تُريدينني أن أكذب يا أُمِّي؟ لم تريدينني أن لا أقولَ الحقيقة، وأنت التي تقولين لي ولإخوتي دائمًا بأنّ الكذبَ حرامٌ ويُغضِب الله!!؟

قالتْ قولها هذا وجلستْ في الأَرْضِ تصيحُ وتنوحُ بأعلى صوتها، فتوقّف الرّكبُ السائرُ عن المسير، ليسمعوا منها ويروا ما بها.

تحلّق حولها النّسوةُ، وبقيتُ أتابع عن بُعدٍ كي أُحاور التّفاصيل وأقتلها بحثًا أو تقتلني من قبْلِ هزيمتنا الكبيرة أمام واقعنا الخانِق، ردّةُ فِعلِهنّ تشي بخوفِهنّ ومحاولاتِهنّ البائسة لطَمسِ رغباتِهنّ المشروعة على لِسانِ فتاةٍ تُجاهِرُ بها دونَما خوفٍ أو حذر، عيوني تتابعُ حِماة الحِمى وتتصيّدُ ردّات فعلِهم في الملامِح ولغة الجسد، أتفرّسُ ما بدا عليهم من غضبةِ أرواحِهِم وأنيابهم التي سُنّتْ لحظةَ سماعِهِم أمرَ أُرجوحتنا.

علا صوتُ والدِ (زهرة) صارخًا فيها من خارِج الحشد:

يكفيكِ بكاءً ودلعًا يا ابنتي، هيَّا بنا معًا سأتسابقُ معكِ إلى المنزل ونرى من فينا يسبِقُ الآخر، ليفوز ببرتقالة يقطفها بيده من أعلى الشَّجرة..

مسحت (زهرة) دموعها بكفّيها المُتّسخة بتراب الأرض، ليتلطّخ بالسّواد وجهها وترفعَ شفتيها الورديّتين بابتسامةٍ غضّة تحكي براءة طِفلة تجابهُ- وجهًا لوجه- أولى مُعطيات الحياة للأُنثى، بما تحملهُ من تحدّيات والتفافات تكتيكيّة قد تحتاجُ إليها في بعض الأوقاتِ، كي تتماشى معها وتُكمِل صفحاتِ كتابها بإيجابيةٍ تامّة.

تستقيمُ بعدها واقفةً على قدميْها وبذراعيها الصّغيرتين تزيحُ كلّ مَن وجدتهُ أمامها، مخترقةً الحشود، واصلةً ليدِ أبيها الممدودة لها بِحُبّ، متقافِزةً في مكانها فرِحةً مسرورةً بحبيبِها الأول.

سادَ صمتٌ بين الجميع وهُم يتابعون بأنظارهم الصّغيرة (زهرة) عائدةً مع أبيها، ومن ورائهم أُمُّها، لم يجرؤ رجلٌ واحد على الاستفسار عن معنى كلماتها التي تسبّبتْ بتلك الفوضى العارمةِ على طريق العودة، بعد يومٍ شاقّ جاء على ما تبقّى في الجسد من طاقة. تابعنا بعدها المسير دون أن ينبِس أحدُنا ببنتِ شفةٍ، وفي نهاية الطّريق ألقينا التّحايا وأمنياتٍ بموسمٍ يدِرُّ علينا المال الوافر وغادر كُلٌّ إلى داره.

بينما نحنُ جميعًا مشغولون بالقِطافِ خارج القريةِ، جلِستْ (سلمى) بعد العصر في ساحة الدّار على الكُرسيّ دون حراك، زوجُها (سالم) يلقي برأسهِ على حِجرِها ويُغمِضُ عينيهِ مستشعِرًا حلاوةَ أصابِعها وهي تغزو خصلاتِ شعره الأسود الفحميّ، فتمشّطهُ وتُبعثرهُ مرّةً أُخرى في حركةٍ روتينيّةٍ يعتبِرُها هو مساجًا

لخلايا دِماغِه وليس رأسهُ فحسب.

وتسأله: لِمَ تُغمِضُ عينك كلَّما داعبتُ بأصابعي شعرك؟

فيرُدّ فاتِحًا عينيهِ ناظِرًا إليها في سرورٍ:

ذلك القُربُ منكِ يا فتاتي، أتلذّذُ به فأُغمِضُ عينيّ ليتعمّق بداخلي شعورٌ بك دون أيّ شَيْءٍ آخر، تدلّلينني كطِفلٍ رضيع، حتَّى أُصدِّقُ أنَّني هو؛ فلا أطيقُ عنك بُعدًا.

تسألُهُ وعينُها تترقرقُ بالدُّموع:

- حتَّى وأنا مُقعدة هكذا؟ أنت لا تعلم حجمَ ألمي عليك وحُزني بأنّي لم أعُد تلك الزّوجة النشيطة التي عهدتها منّي.

يعتدِلُ (سالم) من استلقائه، ويقولُ دون تردّد:

- اسمعي يا حبيبتي، هذه أقدارُ الله التي لا بُدّ لنا من التّسليمِ بها، فيوم الحادثِ كدت أفقدك بِكُلّك، بصوتك وهمسِك وضحكة عيونك، حلاوة روحِك وطيبة قلبك، ما من شَيْءٍ يُعيدُ لي هذا كُلُّه إنْ ضمّتكِ يدُ الأقدار حينها على غفلةٍ منِّي لتأخذكِ، ولا يَكُونُ لكِ بين أحضاني رجعة. ثُمّ إنَّك لا تُعانين من شَيْءٍ عضويٍّ، يا حبيبتي، إنَّما فقدانُكِ وَلَدنا البِكريّ ذي العشْر سنوات في حادثِ حريق، جعلكِ في حالة صدمة، وعلى الرّغم من حُزني على فقدِ ولدي إلّا أنّ سعادتي بنجاتك كانت أكبر منه، لا لشيءٍ سوى لأنّي أؤمن بأن الله لا يكلِّفُ نَفَسًا إلّا وُسعها، وما كان بوسعي أبدًا أن أفقدكِ؛ أنتِ.

لمعتْ في عينيْها دمعاتٌ ثقيلة، فها هو (سالم) يفتح لها مجالًا للتّخفيفِ عمّا اعتمر في قلبها، بتخليصِهِ من بعض أشجانهِ بالبُكاء واستعادة ذِكرى الألم ببوحٍ ثقيل، ولكنّها لا تستطيع؛ لأنّها اعتادتْ الصّمت حيالهُ، فأصبحَ له عندها مكانة ومكانٌ في القلب لا يصل إليه أحد إلّا بارئها.

فِي هذه الأثناء، إذ بباب الدّارِ يُقرع وصوتٌ من خلفِهِ ينادي:

- يا أبا غسّان، يا أبا غسّان..

ينتفِض من مكانه، فهو يعلم بأنّهم العمّال، وبأنّ محصول الزّيتون بات جاهِزًا ليُرسل إلى المعصرة، بعد معاينتِه له ولكميّاتِه واختيار بعض السّلال منه كي تقوم زوجتُه وخادِمتُها «بكبسِه» وتعبِئتِهِ في جرارٍ مناسبةٍ، ليأكلوا منه على مدار العام.

استغلّتْ (سلمى) ذهابَ (سالم) لفتح الباب، وأغمضت عينيها وأصبحت تُناجي ربّها وهي ترفعُ كفّيها مخبِّئةً بهما وجهها الباكي:

- يا الله! إنَّهُ (غسّان) ولدي وفلذةُ كبدي، وأنت أعلمُ به منّي.. يا مَن أعطيتني إيَّاهُ دون حولٍ منّي أو قوَّة.. وأخذتَه إلى جوارك لحكمةٍ تعلمُها وحدك، ولستُ أرحمُ بولدي منك يا ربِّي؛ ولكنِّي فُجِعتُ بفقده، وتألّمتُ لرحيله، فكيفَ لي أن أنسى بأنّ تلك العينين الدّافئتين اللّتين غمرتاني بحنانِها، أغلقتْ نافذتها عن الحياة وغادرتْ ولن تنظُرَ إليّ مجُدَّدًا؟

رأيتُه أمامي يكبُر ويتعلّم، رأيتُ فيه نسخةً عن أبيه وصورة تعكِسُ شيئًا منّي، طيفُه مازال يسبحُ في أرجاء المكان، يناديني «ماما»، والتفتُ إليه فلا أراه، آاااه وقد اشتاقتْ ذراعاي لضمّه، وحواسّي لاستنشاقِ عبيره، وكُلّي للاعتناء به. آااه وصمتي يخنقني وصورتُه محروقًا أمامي ليستْ تغيبُ عن بالي، حاولتُ يومَها- يا ربِّي- أن أنتزِعَه من لهيبٍ حاصرَه وفتكَ بملابسِه، وبعدها جسده الغالي، وما استطاعت يداي هاتان التي حوتْهُ في أضعفِ حالاته؛ ما استطاعت أنْ تمنع عنه شرارةً صغيرة من لهبٍ فمات بها صريعًا.

ما وجعي إلّا على آلامٍ عظيمةٍ كابدها إلى أنْ قضت على جسده الحبيب حيًّا، ومن ثَمَّ أرسلتْ روحهُ الغالية إليك، أرواحُنا تلك الهاربةُ إليك يا ربِّي حتمًا تجد مُستراحها، فأرِحني في رحابك- يا الله- وكنْ لي ولصمْتي الدّليل والمرفأ على طول الطريق.

مسحتْ وجهها المغرورق بالدّموع، فعيونُها ذرفتِ الدّمع كشلالٍ انْسابت المياهُ فيه متّخِذةً من قوَّة الذّريعة سبيلًا لبقاءِ الصّبِ، أسلمت بعدها سلمى أمرَها لربّها، واستكانت ترجو رحمته.

وضع العُمّالُ المحصول في السّاحة، واعتذروا عن إرساله للمعْصَرة اليَوْم بسبب تأخّرهم على طريق العوْدة، فالمعاصرُ أغلقت أبوابَها، ولوْلا حديث طفلةٍ صغيرةٍ عن أُرجوحةٍ مسحورةٍ وافتعالها أزمة توقّفَ لها الرّكبُ لحجزنا على الأقلّ دورًا للصباح الباكر.

شكرَهم، وأغلق الباب، وأصبح يُتمتِمُ:

- أُرجوحة مسحورة، أيُّ عذرٍ هذا!! وأيّ سبب سخيفٍ تتأخّر الرّجالُ عن أعمالها لأجلِه!؟

سمعتْه (سلمى) فضحكت:

- أُرجوحة مسحورة! هكذا تقول؟ كنت أحبّ ركوبَ الأرجوحة وأنا صغيرة، أتمنّى لو أنَّني أستطيع امتطاءها اليَوْم، ولكنِّي مقيّدةُ الأرجُلِ والجسد، لا أستطيع الحراك.

تأمَّل (سالم) قولَها، وعزم على أنْ يعرِف كلّ شَيْءٍ عن هذه الأرجوحة السّخيفة علَّها تُخففُ عن زوجته بعضًا من حزنها الرّابضِ بين حناياها المُتعبة لبعض الوقت.

يُلقي (رائد) بجسدِه المُتعَب من القطاف على كنبةٍ في ساحةِ الدّار، ويتذكّرُ طيفَ خطيبتهِ وابنة عمّهِ (مريم) وهي تُساعِد النّسوة في قطف الزّيتون في المزارع طوال اليوم، وكيف أنَّها لا تُلْقِي ناحيتهُ بنظرةٍ أو حتَّى تبْعثُ مع الرِّيحِ بسمة، يتساءلُ في قرارةِ نفسِه إنْ كانت حقًّا تُريدُه زوجًا لها، ومن أنّها ليست مُجبرةً من قِبلِ أهلِها على الزّواجِ به كعادةِ الأهل في هذه المناطق؛ فلقد سَمِعَ من صديقهِ بأنّه كان قد أحبّ ابنة عمِّه حُبًّا جمًّا فخطبها ووافق أهلُها على اقترانهما، ولكنّها لم تُشعرهُ بتقبُّلها له ساعةً من نهار، بل كانت تنفرُ منه كلَّما رآها أو ألقى على مسامِعها بعضًا من كلماتِ الغزل، فقرّر تركها لأنّه لا يحتمل

رفضَها له، وفرض نفسِه عليها، حتَّى أنَّهُ أنشد فيها شعرًا ألقاهُ على مسامعي وهو في حالةٍ يُرثى لها، مازالت كلماتُه تدقّ كناقوسٍ يهتزُّ له وجداني وَجلًا.

«آهٍ لو أَعْلَمُ ما يجولُ بخاطِرك تجاهي يا (مريم)! إنْ كُنتُ آخذُ حيِّزًا من تفكيرك بحبٍّ حتّى لو لثوانٍ؛ لما وسِعتني الأرضُ فرحًا؛ بل السَّماءُ مكاني!»

كان يومًا شاقًّا على الجميع بمَن فيهم (ضُحى)، ها هي تلِجُ الدّار بعد عناء نهارٍ بطولهِ، احتضنت فيه الأرضُ فجادتْ عليها من ثمارِها، ولكنّها امتزجتْ اليَوْم بغصّةٍ خَلّفها سِتارٌ كُشِف عن الأرجوحة التي صالحتْها بالأمس القريب، فجادتْ عليها بسعادةٍ ظنّت أنَّها ستذيبُ كاساتِ شهدٍ في كؤوسِ مُرّها فتُعادِلهُ لتستسيغَ طعم الحياةِ إلى أجلِ فرحتِها الكُبرى، ألا وهي أن تُخبِّئ في أحشائها جنينًا تحتضِنهُ بين ذِراعيها يومًا، ولكنّ النّوازِل تأتي حشودًا وتمضي فرادًا على مضض.

أمّ زوجها تنادي:

- يا (ضحى)، هيَّا أعدّي لنا طعامَ العشاء ولا تتأخّري، واذهبي معها يا (صباح) لتُساعديها في التّحضير فأزواجُكنّ متعبون ويحتاجون طعامًا مُغذِّيًا يُعوّضهم عن كلّ جهدٍ بذلوه الْيَوْم تحت الشَّمسِ الحارِقة!

– حاضر، خالتي. تعالي معي يا صباح.

(ضُحى) تُعِدُّ طعامَ العشاء، وتُكلِّفُ (صباح) بتقطيع بعض الخضرة، وتجهيز بعض الأطباق الجانبيّة لتكون جاهزةً بأسرع وقتٍ مُمكن كي لا يغلُب النُّعاسُ أزواجهُنّ فلا يأكلون ولا يحميها من مشرطِ لِسَان أُمّ زوجِها أحد. وتُحدِّثُ نفسها في خضِمِّ ذلك:

– مازلتُ أُؤمنُ بأنِّي المنحوسةُ على وجه هذه الأرض، فيوم أنتصِرُ على مخاوِفي، تأتيني مخاوِفٌ جديدة لتهدِم فرْحي وتبني سورها العالي، كي لا أرى للسّعادةِ نورًا ولا لشمسِها ضياءً، فحينَ نؤمنُ بالأمل ونسعى لتحقيقِ إرادته فينا، لا يُمهِلُنا القدرُ طويلًا حتى ننكفِئ على وجوهِنا فيمرِّغَ الأسى أنُوفنا فلا شمسًا رأينا ولا هواءً عليلًا استنشقنا، وَكأنّ جهازنا التّنفسيّ اعتاد الدُّخان وألفَهُ ممّا يجعلنا نرى الهواءَ النّظيفَ مدْعاةً للقلق، فكيف لنا أنْ نستمتِع بهواءٍ لا يحتاجُ منَّا كلّ هذا الكمِّ من الجهدِ لتصفيته من الشّوائب والعوالِق؟

ولكنِّي سأعتادُ الهواء النّظيف، مهْما كلّفني من أَذرُع لإزاحة أيِّ دُخانٍ قد يُعيقُ طريقي نحو الأمل، نحو السَّعادة، نحو إرادتي وحدي في الحياة.

(١١)
«مُفترق الطُّرُق»

صباحٌ جديد يحمِلُ معه فرحة الزّيتون، بحصادهِ وعصره وبيعهِ، ومالٍ يُجنى من خِلالِه، كعادتنا نصحو في البكور لنجتمع سويًّا في رِحلتنا نحو النّبع لجلب الماء، ولكن مع مخاوِفنا التي تكاثرت بالأمس ساعةَ فضحت أمرنا الصّغيرة (زهرة) صحونا لا نعلمُ من أمرِنا شيئًا.

ليلةَ الأمس، قضيتُها أتفادى النَّظر إلى زوجي وكأنّي أخافُ سؤالَه أو رُبّما استنتاجَهُ لما حدث عند النّبع، ولكنّه عاد منشغِلًا بصويحباتِهِ، مشتعلًا بأشواقِهِ إليهِنّ ومشتعلاتٍ هُنّ لنفثِ عِطرِهِنّ الخانِقِ في سمائه وبين ثنايا شفتيْهِ وشعيرات أنفِه، عِطْرٌ باذِخ وموتٌ رخيص، كذلك أراهُ وكذلك أبتلعُ غصّةً من تدخينه النّهمِ للسّجائر، عيونُه لا تكادُ تبينُ سواهُنّ، ولا أكادُ أراهُ من سحابةٍ بيضاء تُحيطُهُ فتحجِبهُ عنّي.

يبدو بأنّ الأُرجوحةَ مسحورةٌ حقّا، فهي كما تُسعِدُنا تُبعِدُ عنَّا عيونًا قد تؤذينا فيها، كم أنا سعيدةٌ بوصفك يا (زهرة) لها بهذه الصُّورةُ، وكأنّك لامستِ سِحرَها فينا وشخّصتهِ، فليس باستطاعتنا رفعَه ولا باستطاعتنا الاستغناء عنه.

أحمِلُ جرّتي وأخرجُ من الـدّار، منتظرةً أقـدارًا رُسمتْ لنا وعاداتٍ تقِفُ على مُفترقِ الطُرُق، لتلعب دور شرطيِّ المرور بمنتهى الصّرامة، ها هُنّ صويحباتي يجتمعنَ أعلى التّلة، أُلقي عليهِنّ التّحية ونبدأ طريقنا من جديد.

فتبدأ (سامية) بالحديث:

– كم تملّكني الخوفُ ليلةَ أمس من ردودِ الفعل على انتشار خبرِ أُرجوحتنا المَسحورة. تطلقُ ضحِكةً عالية وتُكمِلُ حديثها: مازلتُ أستغرِبُ استنتاج (زهرة) لإطلاقِ اسمٍ كهذا على الأرجوحةِ، إلّا أنه يتطابقُ مع أفعالها فينا بالتأكيد.

هل من ردّاتِ فعلٍ وجدتموها في بيوتكم اعتراضًا أو تساؤلًا عن خبرنا الآثم من وجهة نظرِهم؟

فتُجيبُ (ضُحى) سريعًا:

– ما من ردّاتِ فعلٍ في بيتِ العائلة، إلّا أنّ ردّة فعلي أنا لم تكُن لتكون عادية؛ إنْ منعونا عن الذّهابِ إليها بأيّ شكل من الأشكال.

هكذا حسمتُ أمري، ولله الأمرُ من قبل ومن بعد.

(مريم) بعدها تتساءل:

لِمَ علينا أن نتوقّع ردّة فِعلٍ منهم؟ لا شيء مخزٍ فيما نفعل، ولسنا سوى نستمتِعُ بوقتنا عند أُرجوحةٍ وجدناها منصوبةً في طريقٍ ناءٍ بعيدًا عن أعيُنِ الرّجال. لِم الخوفُ إذًا!؟

فتُزاحمهُنّ (أمّ فايز) في الرّد:

صحيح أنّنا لا نفعل شيئًا خاطِئًا، ولكنّ العادةَ جرَتْ يا ابنتي أنْ لا نفعل شيئًا دون إذنٍ، وبأنّ المرأة محسوب عليها تصرُّفاتها، وبأنّها سبيلٌ لسعادة كُلِّ أحد، وأنّها تتفانى في إرضاء الجميع على حسابِ ذاتِها دون مقابلٍ يُذكَر، على هذا تربّينا وهكذا نشأنا.

في هذه الأوقات وصلنا إلى النّبع، إذ بـ (رائد) هناك، يتصنّعُ انشغالًا بِشَيْءٍ ما في الأرض، بيده اليسرى عصًا صغيرة، وباليمنى سيجارةٌ يأخُذُ منها أنفاسًا متتابعة بلا راحة، ينظُرُ إلينا إذ علا صوتُنا بجوارِه وكأنّه في حالة إحراج منْ تواجده عند النّبع في مِثلِ هذا الوقت، بدأ يتَململُ في محلّه ويستعدُّ للنهوضِ والمُغادرة، حتى وقع نظرهُ على (مريم)، فسألها عن حالِها، إلّا أنّها من شدّةِ خجلِها غطّت وجهها وأعطتهُ ظهرَها، ولم تُجِب، آثَر بعدها الرّحيل وهو يُلقي السّلامَ واضِعًا رأسَه في الأرض حرجًا.

لكزتُها في كتِفِها وسألتُها بعصبيّةٍ ظاهِرة:

- لِمَ لمْ تردِّي على خطيبك التّحيّة، ما يُضيرُك إن جاوبتهِ على قدر سؤالِهِ؟

فترُدُّ عليّ لا مُبالية:

- بل، لِمَ يتبعني هو إلى هُنا، ويفتعل تواجدهُ صدفةً؟

- من قال لكِ هذا؟

- هكذا شعرت، وإحساسي لا يُخطئ أبدًا.

مضينا نُكمِلُ طريقنا إلى الأرجوحة، أنظرُ إليها وهي شاخصةٌ هناك كالسّاحِرة والمسحورة في آنٍ واحد، تمنّيتُ لو أنَّها كما تسحرُنا لنعشقَ صُحبتها وامتطاءها، تسحرُ عينَ كُلِّ باغٍ يُريدُ الفتك بها، حين يهِمُّ بإيذائها تختفي فليست تظهرُ لَلعيون ولا لشرٍّ أُريد بها تستسلم، مُراوِغةٌ ترفعُ من يبغي بها عُلُوّا وتصرَعُ في الأَرْضِ مَن يمتهِنُ كرامتها ويشكّكُ في أهميّةِ دورِها. تمامًا كنحنُ النّساء على ضعفنا أقوياء.

تسبِقُنا (مريمُ) هذه المرَّة، فتمتطي الأرجوحة وتخلعُ نعلَها قاذفةً إيَّاهُ أمامها، ويبدأ جسدها بالتّحريك دون وعيٍ منها، ساقانِ إلى الأمام، وظهرٌ مفرودٌ إلى الوراء، وذراعانِ لا تألوانِ جهدًا للموازنةِ بين ما يحتاجُه العُلوُّ، ومِن ثمّ الهبوطُ تباعًا. سريعةٌ هي (مريم) في التّأرجُح، فهي لم تنسَ قواعِده مع طول الزَّمن مثلنا، فتيّةٌ هذه الفتاةُ، ومنطلقةٌ كعصفورٍ ما سُجن يومًا في قفص. الهواءُ المُتمايلُ حولها في انتشاءٍ يرفعُ الثوبَ عن ساقيها البضّين الأبيضين، فلا تُلقِ له بالًا، وتترُكُ لَهُ حرِّيةَ العبث بمسامّها الحريرية ما دامتْ هي في حضرةِ تشْذيبِ أعشابٍ طالتْ روحُها المُهملةِ، كحديقةٍ تتجهّزُ لقدوم الرّبيع لتُزهِر وتخضرّ جنباتُها بهجةً وسرورًا.

وتُفكّرُ بـ (رائد):

– سأُبقيهِ هكذا يلوَّعُ شوقًا إلى نظرةٍ منّي، فلستُ السّهلةُ المائِعةُ التي تبدي حُبّها لحبيبها بهذه السّهولةِ، سأجعلُه يتلفّتُ وراءهُ

مناديًا اسمي، ومتأمِّلًا في حرفٍ واحدٍ يخرُجُ له من فمي؛ لكي يعلم بأنّ كبريائي وحيائي هما ذخري، وبأنّني يوم أضعُ أحمالي في بيتِهِ كعروسٍ، لا بُدّ وأنْ يكون طوعي وتحت أمري كي أسقيهِ بعضًا من حُبّي وحناني.

إذْ به من بعيدٍ- يُتابِعُ خلف شجرةٍ- تحرُّكاتها وتحليقها بالأُرجوحةِ، وساقاها المُشعّةِ نورًا تعمى له العيونُ كما القلوبُ النّاظرةُ إليها بعينِ الشّوق. يقفُ مذهولًا لا يستطيعُ الحراك والتّفكير، يتغزّلُ حينًا بقوامِها وسِحرِها الفتّان، وتشُبُ الغيرةُ بين ضلوعِه حينًا؛ إنّ تخيّل مَن يرمي ببصرِهِ بعيدًا حيثُ هي تتأرجح.

فيُحدِّثُ نفسَه عن تصرُّفِه الأمثل في حالةٍ كهذه:

- لن أُخبِر بهذا أحدًا، لكي أراها كالشّمسِ المُنيرِ كُلّما لاحَ صباحٌ؛ فيسعد بمرآها خاطري وتتهلّلُ أساريري لسعادةٍ تجدُها هي عليها، فأبتهِجُ لسعدِها وَكأنّه سعدي.

لا، بل أُخبرُ عمِّي لكي يمنعَها من الذّهاب بصُحبةِ هؤلاء النِّسوة الماكِرات، فكيف يتجرّأنَ على كسرِ قواعدِ القريةِ والخروجِ عن طوْقِ الطّاعةِ بعملٍ كهذا، هُنّ بهذا يُزاحِمن الرَّجُل قرارَه، ويلتفِفْنَ على طريقةٍ ارْتضيناها نحنُ لهُنّ، ومع الوقت لن نجِدَ امرأةً واحِدةً تسمعُ وتُطيع زوجها، من بعدِها تكونُ القاضيةُ لنا نحنُ الرّجال في قريةِ (أبي زيد).

وما أدراني بعدُ، إنْ كانت مريمُ لا تأتي منفردةً هنا لتُقابل أحدًا سِواي؟ جمالُها الفتّان هو جوازُ عبورها لقلب أيِّ ذكرٍ هنا، ووحدي الرَّجُل الذي يستحِقّها زوجةً له، ما يدريني، لعلّها حقًّا تُحبُّ أحدًا سواي، فلهذا هي ترمُقني بنظراتِ اشمئزازٍ كلَّما تلاقتْ عينانا!

آهٍ من أفكارٍ تُبعثِرُني، ولا تُعيدُ لي تكويني المستكينِ الهادئ كما كان قبل أنْ أعرِفها، فمن يَوْمِ أن دخلت قلبي بحلاوةِ مظهرِها وجمالها الأخّاذ نسيتُ طعم الرّاحةِ والهدوء والتعقُّل، لكنّني أعِدّ نفسي بتحمُّلِ كلّ صعبٍ من أجلِ أن تكون هي لي وحدي وتحلُّ زوجةً لي دونًا عن الجميع، مهْما كلّفني ذلك من جهدٍ وصراعٍ قد يمتدُّ ليحرِق أخضرَ قريتنا ويابِسَها.

بعد انتهائنا من قضاءِ وقتنا المستقطع عند الأُرجوحة، تحرّكنا تجاهَ القرية عائداتٍ إلى الحياةِ بزخمها ومسئوليّاتنا فيها، نتوجّسُ خيفةً من أيِّ خُطّةٍ قد تُعطِّلُ علينا فرحتنا بها وبأنفُسنا، وعند دخولي من باب الدّار ألفيتُ زوجي يبادِرني بالتّحيّة والسّؤال عن سبب تأخّري عند النّبع، وعن سبب بسمتي التي باتَتْ لا تُفارِقُ وجهي منذ فترةٍ ليستْ بالقصيرة، وعن صحَّة خبر الأرجوحة المسحورة الذي فجّرتهُ الصّغيرةُ (زهرة) بالأمس؟

فأجبتُهُ بدلال:

- ولِمَ لا أكون سعيدةً ومُبتهِجة وأنتَ إلى جواري يا زوجي العزيز!

فيرُدّ:

– هو كذلك إذًا! وماذا عن الأرجوحة؟ لِمَ لا تُجيبين على سؤالي..

– ربَّما لأنِّي لا أجد جوابًا عليه.

– على العموم، هيَّا حضّري طعامَ الغداء، فيبدو أنَّني لن أجدَ جوابًا لديكِ، أحتاج أنْ آخذ بعد الغداء قيلولةً أتقوّى بها على السَّهر اللّيلةَ في بيتِ (أبي العبدِ) فالكُلُّ مجموعٌ في داره اللّيلة.

أنْهى حديثَه ودلفتُ أُنجِزُ شئون المطبخ لإعداد الغداء دون أن أنبِس ببنتِ شفةٍ، وكُلّي فضولٌ وخوفٌ وترقُّبٌ لما قد تأتي به رياحٌ من بَعْدِ الغروب.

في هذه الأثناء، خرجت (مريمُ) إلى دار الخيّاطة في منزلٍ بجِوارِ منزِلِهم لتقيس فُستانًا لها قيد الحِياكة، يتِمُّ لها به التأكُّد من أنَّهُ يتناسبُ وقوامها المَشوق، مصبوبًا عليه بإتقانٍ، مُبرِزًا مفاتِنها للعيان، (مريمُ) عروسُنا الفاتنة تتجهّزُ لحياة جديدة تحلُمُ بها الفتيات في مثل سِنّها، فقد أنهت لتوِّها شهادتها الابتدائية وكانتْ من الفتيات المتميّزات بذكائِهنّ، طوال مراحل التّعليمِ المتاحةِ لها في القرية، ولكنَّهُ قدرُ البنت على هذه البقعةِ من الأرض بأن يُهمّش دورُها كإنسانةٍ فاعلة في المُجتمع ليتسيّد دورُ ربّةِ المنزِل جميعَ أدوارِها وأولويّاتها الأُخرى.

وهي سائرةٌ في طريقِها، إذ بـ (رائد) يتبعُها من الخلفِ، يخطو

خطوةً ويقفُ خطواتٍ، كي لا تكشِفهُ مريم أثناء مُحاوَلاتِه الدّائِبة للتنبُّؤ بخطِّ سيرِها.

ها هو ذا، يرصُّ كلماتٍ على طرفِ لسانِه ليُحدِّثها بها، بعضُها كسُكّرٍ يجري له ريقُه عذوبةً وحُبًّا، فتُصيبَه قشعريرةُ سَعادةٍ لمُجرّد تخيُّل نطقهِ لها أمامها وسماعِها له يقولها، أمَّا بعضها الآخر فيُرَصُّ ليمتزِجَ في فمِه بمرارةِ العلقمِ، فالغيرةُ المشتعِلةُ بين ضلوعهِ تُغلّفُ الكلماتِ بالغيظ والقهر، فتُنسيهِ حلاوةً رطّبت فمَه لبعض الوقت، فهو يغارُ حتَّى من طرفِ طرحتها الذي تربطُ به شعرها فيلامِسُ خدّها دون قيدٍ أو شرط مع كلّ نسمةِ هواءٍ تُحرِّكُه! فما بالُكم إنِ ارتفعتْ عينُ رجُلٍ إليها تتفحّصُها من قمّةِ رأسِها حتَّى أخمص قدميْها، حينها القتلُ وحدَه لا يكفيهِ ليبَرِّد نارَه.

يتابعها (رائد) بنظراتِه حتَّى دخلتْ بيت الخيّاطة، وهو معروفٌ للجميع، فأطلق تنهيدةَ ارتياحٍ وجلس بالقُرب على تلّةٍ يترقّبُ مرور طيفِها من جديد، وبدأ يفكِّر كيف يلقاها، ويتدرّبُ على مطِّ شفتيهِ في ابتسامٍ زائف، مرَّة يسحبُها من طرفيْها بالخدِّ الأيسرِ إلى الأعلى، ومرّةً بالخدِّ الأيمن فترفعُ ساتِرًا عن لونِ نابِه الأصفرِ ليجتهِدَ في إخفائهِ بعدها بابتسامةٍ جديدةٍ مصطنعة، يُطبِقُ شفتيهِ تارةً، ويشُدُّ عليهما كالمغصوبِ على الابتسام فهي له كالدّواء الآن؛ لشدَّةِ نفعِهِ يتناسى (رائد) صعوبةَ بلْعِه.

بالدّاخِل، وفِي غُرفةٍ صغيرةٍ حوتْ جميعَ مستلزماتِ الخياطةِ، من أنواع الخيوطِ وألوانها ومُختلفِ الأقمشةِ والأزرّةِ والخرزِ وغيرِها؛ وقفت (مريمُ) في المُنتصَف، بنظرةٍ سريعةٍ أدركتْ بأنّ الحِياكةَ عالَمُ هذه السّيّدة العجوز، فأوّل ما يلقاكَ قبالةَ البابِ ماكينةَ خِياطةٍ سوداء موضوعةٌ أعلى طاوِلةٍ مُتهالِكةٍ بَعْدُ صامدة على أقدامِها الأربعة، وراءها سيِّدةٌ عجوزٌ محنيّةُ الظّهرِ تلبسُ نظارةً مقعّرةَ العدساتِ تُضاعِفُ حجم عينيْها العسليّتين إذا ما نظرت إليك من ورائها، تنكفِئ على حشوِ قطعِ القِماش تحتَ إبرةِ ماكينةِ الخياطة، يزمجِرُ مُحرّكها وتبدأ الإبرةُ بدوْرها تعدو قاطِعةً الأميالَ صعودًا ونزولًا فتخيطُ ما وقع منهُ تحت سنّها، كخيلٍ يدُكُّ الأرض بِحوافِره، مسابقًا الزَّمن، وتارِكًا أثرَه على قطع القِماشِ كوخزاتٍ مباركةٍ على جسدٍ مطواع، وخيطٍ كريمٍ لا يكُفُّ عن مدِّ جسور الأمل بينها، مأمورٌ من فارسٍ يُجيدُ القيادةَ والتّوجيه، فتتبعُه فرسهُ طائعةً مُغمضةَ العينينِ، فبصيرةُ قَلْبِه كافية إن كانَ السّرجُ في يدِ خيّال.

وقفتْ (مريمُ) وسَطَ الغُرفةِ تنظُرُ إلى نفسِها في المرآة بِفُستانِها الجديد، وتقفُ السّيدةُ العجوزُ إلى جِوارِها، تضُمُّ بعض الدّبابيس بين شفتيها، وتسحب واحِدًا تِلوَ الآخر لتعديل أكتاف الفُستان ومُحيطِ الخصر وتُقصِّر به الذَّيل الذي بدا طويلًا على مريم بعض الشّيء.

وهي على تلك الحال، تسألُها السيدةُ عن موعِدِ عُرسِها وإذا ما أنهت تحضيراتها للزواج.

- لقد حدّدوا ثلاثة أسابيع كحدٍّ أقصى لحفل الزّفاف، ونحن جَمِيعًا في سباقٍ مع الزَّمن لإنهاء التّجهيزات وشراء بعض مستلزمات غرفتي في دار أهل خطيبي رائد.

- مبارك يا فتاتي، هذا يومٌ تنتظرهُ كلّ بنت، فهنيئًا لك، وكتب الله لك الهناء في بيت زوجك.

فترُدُّ شاردة:

- لا أَعْلَمُ لِمَ، ولكنّ كل يوم يُقرّبني إلى قدري كزوجة وكأنّه يومٌ يقربُني إلى عتبة قبري، على الرّغم من أنَّني كنت سعيدة جدًّا في بادئ الأمر! فهُنالك شعورٌ لا أفهمهُ بداخلي، يجعلني أخاف من قادِمِ الأيّام أكثر من ذي قبل.

- تفاءلي بالخير تجديه، أيَّتُها العروسة الجميلة.

- جميلة نعم، فهذا جُلّ ما يرونَه منّي ويولونهُ كلّ الاهتمام، أتُراهُم يَرَوْن فيّ غيرَ الجَمال يا خالتي؟

تردُّ وهي تُقرِّبُ كفّها المُجعّد المُرتجِف أُذنها ناحيةَ مريم، وتقترِب منها أكثر بانحناءةٍ بطيئةٍ من نصفِ جسدها العلويّ:

- ها، لم أفهمْ عليكِ يا ابنتي، ماذا قلت؟

تتفحّصُ مَرْيَمُ وجهَها في المرآةِ بيديها وجسدها كذلك، مارّةً بهما

على خصرها، فتُحاوِرُها المرآةُ بمرارة:

– ستعطينهُ جَمالكِ ومتعةً ينتظرها منكِ، وستنجبين أولادًا يحملون اسْمَه هو، ستتكاثر عَلَيْكِ المسئوليات، وتتوالى الأعمالُ المجهدة، وستذبلين وتذبلين في محاولاتك البائسة لإرضائهم ولهناء عيشهم، فتنسيْن نفسكِ وتعيشينَ لأجلِهم وأنت ما عشتِ لنفسِكِ يومًا كأمِّك وجاراتها، فهل أنتِ مُستعِدّةٌ لكلّ هذا؟

تردُّ على المرآة بعينيها السّارِحةِ في كلماتها الموجعة:

– أنا بالفعلِ صغيرةٌ، أدرِكُ يقينًا هذا، ولكنّهم قالوا لي بأنّ عمري مناسبٌ للزّواج في قريتنا هذه، ولا يعدُّ عمري شفيعًا لشيءٍ يمكِنُني فعلُهُ هنا سواه، مغلوبةٌ أنا على أمري، وظننتُ يوم خطبتي بأنّ السّعدَ طالني باختيارِ (رائد) وأهله لي كزوجة؛ لأَنَّنِي قمتُ بانتزاع أوسَمِ رجلٍ في قريتنا من أحلامِ كلّ فتاةٍ فيها، ليُقيم في واقعي أنا، فترعاني عينُه بحبٍّ ودلال!

– ونسيتِ أمْ أنّكِ تناسيتِ أنّكِ تمنّيتِ إكمالَ تعليمك كما فعلت صديقةُ أُمِّك، فهي من المدينة وأهلِ المُدن أقلّ تقيّدًا للمرأة في حرية اختيارها للتعليم والعمل، خاصّةً إذا كانت من عائلة متعلِّمة.

– لقد أمطروني بكلماتٍ جميلةٍ عن جَمالي، وأوهموني بأنّ سنّة الحياةِ زوجٌ وبيت، فهو الطريقُ المُفضي إلى السّعادة! ولكنّي بدأتُ أكرهُ توجيهاتِهم لي، يجرّونني إلى المذبح كبهيمةٍ لا تملُك من أمرِها شيئًا!

تغرِسُ السيدة العجوز سبّابتها في كتف مريم مثيرةً اهتمامها، وتقول: أيحتاجُ الرَّدُّ لكلّ هذا التفكير يا بنيّتي؟

تلتفِت مُنتبهةً إليها في حينِه، وتسرعُ بالرّد:

- ها.. لا عليكِ، مجرَّد كلمات تدور في عقلي، وهي ليست ذات أهمّية.

-إذًا، اعلمي يا بنيّتي بأنّ الحياة للبنتِ صعبة، وتحتاج فيها إلى سندٍ يكونُ إلى جِوارِها، والزوج هو ذلك السّند بعد والدها. أتعلمين، من يوم أنْ مات زوجي عنِّي وأنا أدفِنُ رأسي وراء ماكينة الخياطة، فبين الخيوط والمقصّات والأقمشة زرعتُها قولًا وفعلًا، فصاحبْتُهم وصاحبوني، وأصبحوا أشيائي المُهمّة التي أتّكِئ عليها في جحيمِ وحدتي.

هزّتْ مريم رأسها بتأثُّرٍ واضحٍ، ودعتْ لها بالقوّة وطولِ العُمْر، بعدها بدّلت ملابسها وودّعتها بعد أن اتّفقتْ معها على موعدٍ نهائي لتسليم فُستانها بعد التعديل، وغادرت المكان..

جالسةٌ في صحنِ الدَّار أنعمُ بوقتٍ مستقطعٍ سمحَ به وقتي بعد أن انسحب (أبو محمد) إلى غرفةِ نومنا ليأخذ قيلولته بعد الغداء مباشرة وقبل موعِد اجتماعِهِ بأصحابه وجيراننا مساءً، كوبُ شايٍ تفوحُ منه رائحةُ الميرميَّة فتنتعِشُ لها حواسّي كما جهازي التّنفُّسيّ مع كل استنشاقٍ تختلِطُ به رائحتها العطرة، وأنا على هذه الحال؛ إذ بطرقٍ خفيفٍ على الباب الخارجيّ أكادُ لا أبينهُ حتّى أصختُ

سمعي وتأكّدتُ من سماع طرقاتٍ كحبّاتِ المطر في أوّل هطولٍ له، فتحرّكتُ ناحيته، وإذا بها (ضحى) تقفُ خلف الباب بخجلٍ شديدٍ، وتستأذِنُ بالدُّخولِ لأمرٍ هامّ تريد الاستفسار عنه، بادرتُها مرحِّبةً طالبةً منها الانضمام إليّ ومشاركتي شربَ الشّاي، وأخبرتُها بأنّني حضّرتُ إبريقًا كاملًا وإلى جواره كعكًا منزليًّا باليانسون.

– أهلًا بـ (ضحى) ابنتي، أسعدُ الأوقاتِ بالنسبة لي هي تلك التي تمرّين على بابي للزيارة، تفضلي تفضّلي..

– أهلًا بكِ خالتي أمّ محمد، آسفة لإزعاجك في مثل هذا الوقت، ولكنّي ما استطعتُ إخبار أحدٍ بما يشغل تفكيري، وآثرت المجيء إليكِ على عجل.

– ما الخطبُ يا حبيبتي؟ اجلسي وأخبريني ما بك، هيّا.. مهلًا دعيني أصبُّ لك الشّاي، فلا أحد يصنعهُ كَما أصنعُه أنا، أطلقتُ بعدها ضحكةً مكتومةً تلطّفُ الأجـواء، فيبدو على (ضحى) علاماتُ اضطرابٍ لا أكاد أفهمُها حتّى بدأتْ تنطِق..

– شاي أمّ (محمد) معروفٌ في قريتنا، فهوَ له سيطٌ بين نسائنا ورجالنا يا خالة، وحقّك أنْ تثقي بما تصنعه يداكِ.

ومِن ثمّ أطلقتْ تنهيدةً طويلة، ورشفتْ قليلًا من الشّاي بداخل الكوب التي تضمُّهُ أصابعها المرتجِفة.. وأتبعته ببلعِ ريقها، وأردفتْ قائلةً وعيناها بالكادِ تنظرُ إليّ..

– يا خالتي، تعرفين بأنّ الجميع ينتظِرُ حملي منذُ أعوام، وأشعرُ بعلامات غير عادية تنتابني، ولا أدري إنْ كانت تعني طفلًا بين أحشائي أم لا، ولكنّي أنام كثيرًا ولا أستطيعُ مقاومة ذلك، وأشعر بدوارٍ كلما نهضتُ من الفراش، الرّوائح جميعها تؤذيني، وأشعر بأنّ كلّ العلامات تنطبقُ على أحوالي ولكني أشعرُ برهبةٍ شديدةٍ ألّا يكون كذلك، فيُكسر خاطري وأكون عرضةً لسياطِ الألسنة من جديد، فيتهامزون ويتلامزون عليّ بأكثر ممّا كان. فماذا برأيك عليّ أن أفعل؟

– هل حدث لك أمرٌ كهذا من قبل؟

قلتُها وشعرتُ بحرارةِ الفرح تُشعُّ من عينيّ ولكنّي أحاولُ التصرف برويّةٍ..

– لا.. لا، لم يحدثْ لي هذا من قبل. هل ذلك يعني بأنّي سأصبحُ أمًّا عمّا قريب؟ بشّريني يا خالة، لكم أرتجِفُ في انتظار لحظةٍ كهذه.

وامتلأت عيناها بالدّموع..

فردْتُ ذراعاي، وضممتُها إليّ، وباركتُ لها مؤقتًا حتّى تذهب بنفسها وتتأكد من القابلة.

– يا (ضحى)، هذا يومٌ مبارك وسعيد، والأجملُ قادمٌ بإذن الله، وإنّ كلّل الله فرحتك بأن يرزقك صبيًّا ذكرًا فذلك يعدّ قوّةً لك، وإن توالى إنجابُكِ للذُّكور في الأعوام القادمة ستضعكِ أمّ زوجك في وضع الآمر النّاهي في المنزل، وستتغيّر أحوالك للأفضل، صدّقيني..

- حتّى أنت يا خالتي تقولين هذا؟! أنا أحبّ البنات وأتمنّى أنْ يرزقني الله بفتاةٍ تشبهني، أُلبسُها فساتينَ صغيرةً فتدورُ بغنجٍ أمامي وهي غضّة الخُطى، أميرةُ الزّمان، بل أميرةُ زماني، أجلسُ معها على الأُرجوحة، وأعلمُّها كيف تُحلّق في السَّمَاءِ كَطائرٍ دون خوف، كم نهشَ الخوف أيّامي بدونِ أمّ، ولن أدعهُ يلمِسُ شعرةً واحدةً تملكها ابنتي.

- أرى الأرجوحةَ تدخل ضيفًا عزيزًا يشاركُك فرحتك بابنتكِ المنتظرة؟ ألهذا الحدّ أنتِ فرِحةٌ بها؟

- لا أستطيع وصفَ تلك التّغييرات التي أحدثتْها الأرجوحةُ في حياتي يا خالة، حتّى أنّني لو حقًّا حُبلى فالأرجوحةُ بعد الله- سبحانه وتعالى- سببٌ في ذلك. فانتصاري على مخاوفي، واستمتاعي بالقليل من الوقت الذي أقضيهِ عليها سابحةً في ملكوت الله؛ كان له مفعولُ السّحر على تقبّلي بعضًا من واقعي وتقليل حزني الشّديد على ما فاتني من سعادةٍ في طفولتي.

مِن يومها بدأتُ أتذوّقُ طعمَ السّعادةِ في يومي، فأبِيتُ شاكرةً ربّي أنّ لي فسحةً من حياةٍ أقاوِمُ بها ضِيقَ العيشِ، وآلامًا كانت تلفُّني واستطابتْ.

- هكذا كنتُ أفكِّرُ ساعةَ تشييدها يا فتاتي! تعالي في أحضاني مرَّةً أخرى يا (ضحى).

فارتمت فيها تذرفُ دموع الفرح، وهي تقول:

- الحمدُ لله أنْ أرسلكِ لي هديّةً من السّماء.

اعتدلتْ بعدها تشدُّ على حروفها بحماسةٍ شديدة:

- وشكرًا لك على أفكارك الجهنّمية في اختراع مصدر بهجةٍ للسيدات، فضلًا عن أنّكِ لَم تنتظري منهنّ حمدًا أو شكورًا؛ بدليل أنَّكِ ما أخبرتنا نحن حتّى الآن بأنك أنتِ الفاعل!

- بعضكنّ يعرف ولكنّهنّ خوفًا من فقدها صمتْنَ عن كشفِ السِّر، هل تصدّقين بأنّ سامية تعرف ولَم تخبر أحدًا! هذه معجزةٌ بعينها والله..

وأطلقنا ضحكاتٍ مكتومةً خوفًا من إيقاظ زوجي، ودّعتني بعدها (ضحى) وخرجت سعيدةً لا تدري كيف تزِفُّ فرحتها لزوجها وأهله.

خرجت عروستنا (مريم) من منزل الخيّاطة، الأفكارُ تتناثرُ كالقذائف من جهةِ عقلها اليمين إلى اليسار وبالعكس، ترتحلُ بسرعةِ الضّوء فتهزُّ كيانها وترتعِشُ لها قدماها. سائرة بلا وجهةٍ هي الآن، بعد أن ظنَّت أنّها ذاتُ هدف وتعرفُ سبيلها جيِّدًا لتحقيقه، وأثناءَ سيرِها تبدَّى لها شابّ مُلثَّم بكوفيةٍ تراثيّةٍ فلا يظهرُ من وجههِ غير عينينِ ناعستين، وإذْ به يقترِبُ منها أكثرَ من اللّازم، فتتحرّك إلى جانبِ التلِّ في محاولةٍ منها لتفاديه، وإذْ به يقترب أكثرَ وأكثر ليزُجّ بها في منطقةٍ لا يراهُما فيها أحد، وحين أدركتْ خطورةَ الأمر بدأت تصرخُ فيه:

– يا هذا، ماذا دهاك؟! ابتعد عنّي وإلّا رفعتُ صوتي، وأسمعتُه للقرية كلّها ليجتمعوا ويوسعوكَ ضربًا ويمنعوكَ من الاقتراب من قريتنا عمرَك الباقي بأكمله!

وضعَ الشابّ كفّهُ على فمِها محاولًا إسكاتَها، ريْثما يرفعُ عن وجهه اللِّثام فتتعرّفَ عليه، كشفَ عن وجهه الغطاءَ، وإذ به (رائد) خطيبُها ليزداد ذهولها:

– (رائد)!! ماذا تفعل؟ أين عقلك ما الذي تفعله بي؟

– أردت الحديثَ إليكِ، ولَم أجِد فرصة أقابلك بها منفردةً سوى هذه، كم أنتِ جميلة عن قرب يا مريم!

– كيف تتجرّأ على فعلةٍ كهذه، لقد أرعبتني لمجرّد أنّك تريد رؤيتي عن قرب.

– اعذريني، فمنذُ الخطبة وأنا لم أتحدّث إليكِ، ولا سبيلَ لأراكِ غير هذه، فقد جاءتني فكرة وأردت عرضها عَليْك، وهي أن نتّفق على موعدٍ محدّدٍ كلّ يوم عند الأرجوحة كي نقضي بعض الوقت معًا هناك، بعيدًا عن عيونِ أهل القرية، وفِي غير أوقاتكنّ التي تجلبْن فيها الماء صباحًا، كي لا يرانا أحد!

– الأرجوحة!! مَن أخبرك بأمرها؟ لا، لن أتّفق معك على شَيْءٍ، دعني أرجع المنزل فأهلي سيقلقون عليّ لأنِّي تأخّرتُ كثيرًا، وسأعتبر ما حدث اليَوْمَ معك لم يحدثْ، ولكن لا تعيد تكرارَه، رجاءً.

سحبتْ نفسها من أمامِه، وهمّتْ تخطو خطواتِ الرَّحيل، ليقول لها بصوتٍ عالٍ:

- سأخبرهم عن الأرجوحة وتفاصيلِ طريقكُنّ من نبع الماء إليها، وسأترُك لهم حريةَ التصرّف في أمر تمردِكُنّ علينا وكسر قواعد قريتنا!

- افعلْ هذا، ولنْ أكون زوجةً حليلةً لك ما حييت، فأنت بهذا- فضلًا عمّا فعلته معي اليَوْمَ- لا تستحقّ أن أضعَ عمري كلّه تحت رحمتك وتصرُّفك.

وكالرّيحِ سريعًا غادرتْه غاضبة، تشعُرُ بغضبتها تُلهِب وجنتيها، وتتسارع لها نبضات فؤادها الصَّغير.

(١١)
«فتيلُ ثورة»

تطرقُ (مريم) باب الدَّار مناديةً بصوتٍ لاهثٍ يملؤه الغضب والخوف في آنٍ واحد:

- افتحي لي الباب سريعًا يا أمّي.

تُكمل طرْقَها عليه بقوّةٍ غير معتادة، ممّا أفزع أُمّها (أمّ العبد)، ففتحت الباب في سرعة البرقِ لتجِد وجه ابنتها، وقد اصطبغَ بالصُّفرةِ مبلّلًا بالدُّموع، تدسُّهُ (مريم) في كتِفِ أمِّها، فتلفُّها بذراعيها وتشدُّ عليها احتماءً بها مُردِفةً بصوتها الباكي: دثّريني بين أحضانك يا أمّي، إنّي أخافُ من هذا العالم، فالعالم خارج منزلِ أبي مخيفٌ جدًّا، ولا شيء يُهدّئُ نفسي المكلومة في هذه اللّحظة سوى حضنك يا أمّي، دثّريني.. دثّريني..

تتركها الأمّ منغرسةً بين جنباتها ذاهلةً تُحاول استيعابَ كلماتها تلك لبعض الوقت، وتفطنُ إلى خطورةٍ قد تكون تعرّضت لها فلذةُ كبدها في مشوارها القصير إلى الخيّاطة، فتُبعدها عنها بذراعيها بحزمٍ وتصرخُ فيها وهي تهُزُّها كريحٍ خريفيّةٍ تتنافضُ هي بين يديها كشجرةٍ تتساقطُ أوراقها يمنةً ويُسرة من شدَّتها:

– مَن الذي اقترب منكِ؟ أَلمسكِ أحدٌ على الطريق؟ قولي يا ابنتي أجيبيني ماذا بك! وما الذي حدث لك؟ قالتها وهي تتحسّسُ جسدَها من رأسها وحتّى أخمص قدميها.. و(مريم) تبكي، ولا تعطيها جوابًا يبرِّدُ ما في قلبها من نار الخوف.

وحين استجمعت مريم قواها، كلمات معدودة فقط تحرّك بها لِسانَها، مفادُها:

– لن أتزوّج (رائدًا) يا أمّي، لا تجهيزات للزّواج ستقام بعد اليَوْم، وانتهى الأمر.

– ما معنى هذا الكلام!! هل مسّك بسوء؟ تكلّمي؟ هو ابن عمّك.. ماذا نقول للأهل وأهل القرية؟ والدك لن يسمحَ بهذا، أتفهمين؟

– إنْ كان يهتمُّ لأمري وراحة بالي سيقبل، وإلّا فالانتحارُ أو الهروبُ أجدر بي، ولقد أعذر مَن أنذر!

ومضتْ إلى غرفتها مغلقةً إيّاها بالمفتاح مُلقيةً نفسها على ذات السّرير الذي باتت ليالٍ عليه وهي تحلمُ بصورةِ (رائد) تحوم حولَها، وهي عَلَيْه مُستسلمةً لكلّ فكرةٍ تجمعهما معًا في خيالها.

إذْ بها تدرك كمْ هي حمقاء حين فعلت، وتركت قلبَها يصوِّرُ لها فتى الأحلام أقرب إلى الملائكية منه إلى رجلٍ قويٍّ يتبعُ العادات والتّقاليد، ويحفظ حقوقه أكثر ممّا يراعي واجباته، يجمعُ سياط سُلطته ليستخدمها أكثر ممّا يستخدمُ يدَه الحانية ورحمته مع ضعيفات القلوب والجسد.

تغمسُ وجهها المبلّل بشلّالاتِ الدُّموع في وِسادتها، وتزفرُ فتشعُر بحرارةِ أنفاسِها ترتدُّ إليها، كأثرِ حريقٍ اشتعل فملأ الأجواءَ حرارة ودخانًا كثيفًا لا يرجى انكشافُه في القريب العاجل.

- يا ويْحي، ماذا فعلتُ بنفسي! وما الذي قد تكتبه الأقدارُ لي في الأيّام القادمة.. وتجهِش بالبكاءِ قهرًا من جديد.

بينما تنشغلُ أمّ العبد بالتّحضير لضيوفِ زوجها، يستقبل (أبو العبد) ضيوفه فيجلسهم إلى يمينه واحدًا تلو الآخر، فيتبادل الجميعُ الحوار والنقاشَ فيما بينهم عن شئون القرية وأحوالها، ها هو زوجي يسلِّمُ عليهم رافعًا ذِراعه اليمينَ إلى الأعلى، وفاردًا كفّه من ثمّ طاويها؛ ليرتاح فوق القلب مباشرة فيُطأطِئَ رأسه كعادةٍ جرتْ بين رجالنا في إلقاء التّحية والسّلام، من ثمّ يتّخِذُ مقعدًا إلى جوار سالم وإلى جوارِهما (ماهر) زوج ضحى وباقي رجال القرية، والكلُّ يجلِسُ على كراسي مرصوصةٍ على شكلٍ بيضاويّ، ويتحدّثون بمنتهى الانسجام والأريحيّة.

هنا يدخل (رائد) مُغتاظًا، فيظهر غيظُه وغضبه جليًّا في مشيته وحركةِ يديه، وأشدُّها ذلك الذي غيّر ملامِح وجهِه إلى المُكفهرّ الشّارد. سلّم سريعًا وجلس في مقعدٍ وجدهُ فارِغًا في يسار مجلسهم هذا في ركنِ الغرفةِ القصيّ، فالتّفكير يشغلُ حيّزًا كبيرًا من عقله اللَّيْلَة، ومستقبلهُ مع (مريم) يعتمد على تصرُّفه الآن فيما حدث منه

معها ومنْها معَه، وحسابُ مدى تأثير ذلك على كلّ منزلٍ في هذه القرية المتمرِّدةِ والمستهترة نساؤها بقوامة الرّجال. فكُلّ الحاضرين هنا في نظرِه مجموعة رجالٍ مضحوكٌ عليهم، وهم إنْ سمحوا لأنفسِهم بذلك، فلن يسمحَ لنفسه هو أن يكون خلخالًا في قدمِ امرأة بهذا الشّكل.

يقف وينادي بصوتٍ عالٍ:

– يا رجالَ قريتنا، يا أصحابَ الكلمةِ المسموعة الرّنّانة، أهلَ القوّةِ والعزيمة، مفتولي العضلات، كثيفي الشّوارب، يا من يهابُكم القاصي والدّاني، ألا يحِزُّ في نفوسِكُم وقد بلغتُم من أمرِكم رشدًا أنْ تهتزّ صورتُكم ويُضرب بقوانينِكم عرض الحائط؟!

صاح أكبرُ الحضور سِنًّا وسط ذهول الجميع:

– ما بالك يا فتى، مَن تظُنُّ نفسَك كي تُقلّل من شأننا بهذا الشّكل، وما الذي حدث لتتهجّم علينا بألسنةِ الاتّهامِ دونَ توضيحٍ أو أدْنى دليلٍ على صدق ما تقول؟! ويحك ويْحَ ما جاء به لسانُك، حتّى أنّك لم تستأذن صاحبَ الدَّار كي يسمح لك بالحديث السّخيفِ المتطاوِل هذا!

ردّ (أبو العبد) محاولًا تخفيف حِدّةِ الموقف:

– ما الذي دهاك يا رائد يا ابنَ أخي؟! ما الذي طرأ عليك لتشتعِلَ غضِبًا بهذا الشّكل؛، فتنسى به حدودك في التّعامل مع الكبير والذي لم أعهدهُ منكَ قبلًا!.

- أيُّ حدودٍ! وعن أيّ كبيرٍ تتحدّث يا عمِّي.. والنّساءُ مرّغوا شوارِبكم في طينِ الأرض؟! إنْ لم تتحرّكوا لن تقوم لكم حتّى في عقرِ دارِكُم قائمة.

قالها وهمّ بالخروج، وهو في أوْجِ فوَرانِهِ، ولكنّهم تحلّقوا حولَه وأجلسوهُ عُنوةً على كرسي، ومنعوه من الحركة، وانتظروه كي يقول ما عندَه كدليلٍ يقلّل من رجولتهم في نظرِه، وينتقص من هيبتهم أمام نسائهم على حدِّ قوله.

بادرهم بحديثه الغاضب، وبصوته المُرتفع، الذي تغلي له أطرافُ الحروف وهي تخرجُ من لسانِه متسارعةً كبخارٍ متصاعدٍ من إبريق شايٍ يغلي على الجمر دونما غطاء يوقفُه:

- نساؤكم يستغفلونكم، ويخرجون من بيوتكم من الفجر بِحُجَّة جلب الماء من النّبع، وهناك يكسرنَ كلّ القواعد، ويمتطين أُرجوحةً ربطنَها دون إذنكم أو موافقتكم في فرعِ شجرة، فتعلو أصواتهُنّ بالضحك وينكشف منهُنّ ما سُترْ، فهُنّ عُرضةً لنظرات الذّئاب البشرية، والله وحدَه أعلم ماذا يفعلنَ أكثرَ من وراء ظهوركم، وأنتُم كأصحاب الكهفِ مضروبٌ على آذانِكُم لا تدرون عنهُنّ شيئًا!

أمّا إنْ كُنتُم تقبلون بهذا فأنا- والله- لا أقبلُ من زوجتي المُستقبليّة أن تُخادِعني وتستهينَ بي إلى هذا الحدّ الجارح المُهين لرُجولتي، فإمَّا أنْ تمنعها يا عمّي أو أن أمتنِعَ أنا عن الزّواجِ بها،

ولن أسمح لأحدٍ أن يطرُق بابكم بعدي طالبًا يدَها، ولتكُن ابنتُكَ المصون عبرةً لبنات القرية جميعهنّ، ولقد أعذر من أنذر.

نفث (رائد) سُمّه على مسامع الجَمْع حتّى تركهم مشلولي الألسنة لا يقدرون على أكثر من نظرات الذهول وضرب الكفّ بالكفّ، فتسرّب هو مِن أمامِهِم خارجًا من دار عمّه لاهثًا يُعاني جفافَ حلْقهِ وشرًّا يتطاير من قلبه.

وبعدَ زمنٍ من الصّمت، وترديد البعض الآخر الحوقلة مصحوبةً بِنظرات الاستهجان وشعور بالخنوع، هدأ الجميع وبدؤوا بالتّفكير في حلّ فوريٍّ وجذريٍ لما يواجهونَه اليَومَ من تحدٍّ يمسّ بيوتهم من الداخل، ومَن ذَا يحتملُ غرقَ منزلهِ فيبيت في العراءِ مكشوفًا لا سقفَ له ولا غِطاء!

تابعهُ (أبو العبد) بنظرِه في غضبٍ وحُنقٍ شديديْن، غاب بعدها (رائد) خلفَ الجدار خارجًا من الباب تارِكًا خلفَه الغبارَ المتطايِرَ كالذّيلِ يجري ورَاءَه من سُرعتِه..

كسر (أبو العبد) حواجِز الصّمت باعتذارٍ مشوبٍ بالهمّ وقلة الحيلة قائلًا:

– أتقدّم بالاعتذار الشديد عمّا بدر عن ابن أخي من إساءةِ أدب، لم أكنْ لأقبل منه كلمةً منطوقةً واحدة؛ لو أنّني علمتُ بنواياه تلك بالتّهجُّم عليكم وعلى نسائكم، ولكنّ عزائي الوحيد بأنّه رفع

عليّ سوط لسانِه فنالني منه ما نالكم من أذى وأكثر.

دعونا الآن نواجه بكلّ حزمٍ فنضرب بيدٍ من حديدٍ كلّ مَن تُسوِّلُ له نفسُه التعدِّي على قوانين وأعراف توارثناها من جيلٍ إلى جيل، هيّا بِنَا نقطع دابر فتنةٍ أُريدتْ بِنَا، ماذا برأيكم نَحْنُ لا بدّ فاعلون!؟

فردّ أحدهم:

- لن تلمح زوجتي الشّجر خارجَ الدّار، فيكفينا خزيًا ما حصل اليَوْم.

وأردف آخر:

- سأمنعها حتى عن جاراتها فلا نبع ولا ماء، لا صُحبةً تنالُها بعلمي، ويكفيها أن تكون خادمةً فلا حقوق لها عندي.

انتفض آخرُ من مكانه مُهدِّدًا ومتوعِّدًا:

- لو أنَّني أعرف من تلك التي علّقت أرجوحةً لنسائنا الشّقيّات؛ ليتمايلنَ عليها ويضربنَ بأرجُلِهنّ أعراضنا لتتمرّغ بالتُّراب والطين، لجعلتُها عبرةً لَمَن لا تعتبِر.

إلى جِوارِهِ تحامى آخر، وأخذ يردّد بغضب:

- لا أكاد أستوعِبُ صمتكم! لمَ أنتم جالسون هكذا دون حِراك؟ هيّا بِنَا نقطع هذه الأرجوحة اللعينة وشجرةً تؤويها، فلا خير فينا إن لم نفعل.. هيّا بِنَا.

في هذه الأثناء، أخرج زوجي من جيبِه علبةَ سجائره، وبدأ بإشعال واحدة، ونفث دُخانِها بانتشاءٍ في الهواء وكأنّه لا يشعر بكلّ

تلك المُتغيّرات من حوله، ولكنّها طريقتُه المُعتادة في اجترار الأفكار التي تطوف داخِلَ رأسه، فيحاول ربط بعضِها ببعض، وفكّ عُقَدٍ شبّكتها وحيّرت عقلَه، ووحدهُنّ حبيباتُ خلوته يستطعْنَ تسكينَ ثورتِه بأقلّ الخسائر الممكنة في نفسيّات البشر مِن حوله، إلّا أنّ فكرةَ أَنِّي المُحرِّضة سيطرتْ عليه، وكلّما أشعل سيجارةً وأخذ يُهدّئ نفسَه باستنشاقِ سُمِّها، تخيّلني ممثّلةً فيها كمُتَّهمةٍ في الفوْضى العارِمة مِن حولِهِ، ليرميها بشطرِ روحٍ في منفضةِ السّجائرِ أمامَه، ويكوّرها فيها دون وعي، يُتابعها بنظراتِه السّارِحة حتّى تُطلِق أنفاسَها الأخيرة خنقًا، بفعلِ غيظِهِ وتآمرٍ من سبَّابتهِ والإبهام معَه على قتلها بدمٍ حارّ.

– لن تفلتي من يدي إنْ كنت أنت الفاعلة يا امرأة؛ والله لن تفلتي.. ردّدها مرّاتٍ ومرّات في نفسه، وقامتْ لصَداها زلازِلُ اهتزّت لها نفسي على البُعد، ولكنّ صوتَ جموع النّسوةِ الفرحات بالأرجوحة كان يُغطّي على كلّ صوتٍ للخوف في نفسي فيجعلها تستقرُّ وتستكين.

يلتفِت بعدها عن شماله حيثُ شعر بلكزةٍ في ذِراعهِ قطعت عليه حبلَ أفكاره، إذا به (سالم) يضعُ كفّه عليه ويتساءل بصوتٍ خفيضٍ في أُذنه:

– لمَ يحدث كلّ هذا!! لا أفهمُ ثورتكم من أجل أرجوحة يتيمةٍ تُمتِّع نساءنا، وكيف لها أن تكون تهديدًا لنا ولقوامتنا عليهنّ، ولِمَ تقفون جميعًا ضدّها؟!

- ما الذي تقوله يا رجل؟! أليس عندك غيرة على زوجتك؟ آه، نسيتُ بأنّها محبوسةٌ في البيت بفعل إعاقتها، فالأمرُ لا يعنيك من قريبٍ أو بعيد!

- صهٍ أَيُّهَا الأحمق، بل أنتَ مُعاق الفِكر، جاهليّ العقل، لو أَنَّه بيدي لخلّصتُ العالمَ من أمثالك، ولكنّني الملامُ لأنّني أعطيتُ جزءًا من وقتي الثّمين لأستمع لرأيِ شخصٍ تافهٍ مثلك، يا ليتني ما حضرتُ جمعكم هذا.. لا سلامٌ عليك، ولا يصحّ مع أمثالك كلام!

قالها (سالم) وانتفض كالمذْعور يسابِقُ خطوَه ليخرج من المكان دون أن يُلقي التّحيّة على أحد، وسُرعان ما اختفى كـ (رائدٍ) وسَطَ استغراب الجميع.

تبِعَه (أبو العبد) مُناديًا على أهله من عند الباب ليخفّ ارتباكه الشّديد، طالبًا الاستعجال في تحضير الشّاي، وفِي دقائقَ معدودة، ظهر صبيانُ الدار وهُم يحمِلون صوانٍ عليها كاساتُ الشّاي، يُتبِعونها بأخرى موزَّعة عليها أطباقُ الحلويّات الشّرقية المصنوعةِ في المنزلِ، لتكون الكنافةُ ملِكةً متوّجةً على كلّ صحنٍ فيها.

بعدما التُهِمتِ الحلويَّاتُ من الصُّحون وارتُشِفَ الشاي في صمتٍ عجيبٍ، انفضّ الجمعُ، وكُلٌّ ذهب إلى حال سبيلهِ، على اتّفاقٍ واحدٍ؛ بأنْ لا يسمح أحدٌ لزوجتهِ أو إحدى بناتِه بالخروج من المنزل بِحُجّةِ جلب الماءِ من النّبع مهْما نَقُص الماء وجفّتِ الضّروع حتّى يتمّ إنهاءُ أمرِ الأُرجوحةِ من جذوره في الأيام القليلة القادمة.

(١٣)
«إجهاضُ الأمل»

رفعَ (ماهِر) صوتَه من خارِج باب دارِ عائلته مناديًا على زوجتِهِ كي تأخذ زوجاتُ إخوتِه ساترًا قبل أن يلِجَ ساحة المنزل ومنها إلى الدَّار، فتفرّقن جميعًا على إثر سماعهنّ له، وولجتْ كلّ واحدةٍ منهنّ إلى حُجرتِها، إلّا (ضحى) والحاجّة (أمّ ماهر)، ها هي (ضُحَى) تسرعُ ناحية الباب لتستقبلَ زوجها فرِحةً بقدومه، فلديْها من الأخبار ما يُسعدُ قلبَه، أليسَ هو مَن طال انتظارُه لمولودٍ تتحرّك له أحشاؤها ويحملُ لاحِقًا اسْم والِدِهِ ملحوقًا باسمِهِ!

- (ماهر)، أهلًا بعودتك سالمًا يا عزيزي.

- اذهبي إلى حجرتك، ولا تخرجي منها حتّى آتيكِ، هيّا..

بعدَها توجّه إلى والدتِه الجالسة على كنبةٍ خاصّةٍ بها، فلا يجلِسُ عليها غيرُها من أهل الدَّار أبدًا، فسلّم عليها مُقبِّلًا يدها ورأسها، من ثمّ جالسًا إلى جِوارِها متلطّفًا معها بحديثٍ قصيرٍ، وبدورها تقومُ بفتح بابِ أحاديثها المتشعِّبة فيهرعُ لغلقِها بابًا وراء الآخر، فهو مُرهقٌ جدًّا، وتدورُ في عقلهِ أفكارٌ لا بدّ أن يحدِّث بها زوجته ويمنعها بعدها من الخروج للنّبع وجلبِ الماء منعًا باتًّا.

عندما عجِزَ عن ذلك، بدأ بافتعالِ النُّعاس بالتّثاؤب، من ثمَّ إغلاق عينيهِ وتهاوي الرّأسِ على الكتِفِ في دلالةٍ واضحة على عدم استطاعتهِ البقاء معها لوقتٍ أطول، وبما أنّها الأمّ الرَّحِيم؛ فلا يهونُ عليها أن تراهُ يُكابد كلّ هذا العناء ليبقى معها أكثر، تبدأ حينها بمُطالبتِه بالذّهاب إلى حُجرته والخلود للنّوم، فقد اطمأنّت عليه، ويكفيها أنْ تراه مُرتاحَ البال، يقوم من فوْرهِ مودِّعًا إيّاها على عجل، قبل أن يهرب منه النُّعاس على حدِّ قوله.

باسمةً تلقاهُ (ضُحَى)، وكم تُخْفِي خلف بسمتها من مشاعر متفجِّرة بالسّعادة والانتصار والامتنان للخالق؛ بأنِ انْجلى حُزنها، وبأنّها ليست عاقرًا كما جعلها الجميع تظُنّ، فاليَوْمَ هي تحملُ أغلى هدايا الرَّحْمَن في أحشائها بِقُدرتِهِ وحدهُ مُنِعتْ، وبرحمَتِهِ الواسِعةِ وُهِبتْ، فما أجملَ الهِبات التي تعقُبُ الحِرمان، وما أقصر ساعاتِ الحِرمانِ حين تتلوها الهِباتُ الرَّبانيةُ، فهي كشرابٍ من عسلٍ مصفّى بعد طول ظمأ واشتهاءٍ.

ما إنْ وجَدتْ (ماهر) أمامها، وبعد أن قام بإغلاق الباب عليهما؛ حتّى ارتمتْ في أحضانهِ تشتمُّ ريحهُ وتستمِدُّ منهُ قوّةً، لتُلقي على مسامِعه- وهي أقربُ ما يَكُونُ من دقّاتِ قلبه وطبلةِ أُذنه- ذلك الخبر السّعيد؛ الذي ما فتئ ينتظِرُ سماعَه مطلعَ كلّ شهر، لكنَّ قسوةً نالتْ قلبهُ تِجاهَها؛ كانت مُحرِّكًا أساسيًّا هذه المرّة في عدم اكتراثهِ،

فنيرانٌ أُضرِمت خارِج المنزِل لا بدّ حارِقة أساساتِه إنْ لم تُخمد في حينهِ بيدِ الحِكمةِ وحُسنِ التّصرُّف.

تلقّف (ماهر) زوجته المُرتميةَ في أحضانه كعدوٍّ جاء يطعنه، فدفعها بكلتا يديهِ بأقصى ما يملكُ من قوّة فانْطرحتْ بها أرضًا بعد أنِ ارتطم جسدُها في السّرير الحديديّ الذي يتوسّط الحُجرة لترتجّ الأرضُ من تحتها، فمِن اليَوْم ما عادت الأرضُ لتهدأ ولا لتسكُن.

نزل (ماهر) على رُكبتيه إلى جوار (ضُحَى) الباكية بلا صوت، ووضع كفّيهِ على كتفيها وشدّها لتعتدِل أمامَه بالشّكل الذي أراد لها أنْ تكون عليه، فتُطلِقُ آهةً لم تستطِع التّحكُّم في درجةِ عُلُوِّها هذه المرة كما اعتادتْ، خوفًا من أنْ يسمعها سكّان المنزل الكُثر، فهي بحقّ متألمة، وروحها تئنُّ من الوجع قبل جسدِها، تتساءل في نفسِها ماذا فعلتُ لك لأجدَ كلّ هذه القسوة منك يا رجل؟! كمّمَ فمها وانْهال عليها ضربًا، حتى طالَ الضّرب جميع أعضائها وهو يصرخُ فيها:

- تخرجين مع النّسوة بحُجّةِ جلب الماء، وتتأرجحين بأرجوحةٍ، الله وحدَه أعلم إن كنت أنتِ مَن ربطها أعلى تلك الشَّجَرَة أم لا، فيتأمّلكِ المارّة من الرّجال بعيونهم! مَن تظنّين نفسكِ وأنت تضربين بالأصول عرضَ الحائط، تمرِّغي أنفي- وأنا المسئول عنكِ- في الوحل من هوْلِ ما فعلتِ، أما يكفيكِ بأنك عاقر ولا تنْجبين لتشعُري بالهوان فتصبحين خادمةً مُطيعة، لا يُسمع لها صوت ولا يُشارُ لها بِبنان!

(ضُحَى) الملقاةُ على الأرض تنتحبُ وهي تغطّي وجهها براحةِ يديها خوفًا من فقْدِ عينٍ أو تشويهِ وجهٍ، وتصرخ كلّما هوى عليها بكلّ عزمِه غير آبهٍ بهشاشة أضلعها وضعفِ جسدها.

خائفة على طفلٍ تضُمُّه أحشاؤها أمامَ ثورٍ هائجٍ يترنّحُ دون وعيٍ فوقها، وهي تُحاوِلُ أن تنجو بأُعجوبة من دهسِ أقدامه لها ولنُطفةٍ مازالت تتخلّقُ داخلها. فتصرخ فيه:

- أنا حامل، حامل.. حامل.. ألا تسمع! أفلا تتوقّف عن هذا الجنون الذي أصابك! ابتعد عنّي لا بارك الله لكَ في صحّةٍ ولا عافيةٍ تتقوّى بها على امرأة.

- أنتِ حامل! خدعةٌ جديدةٌ هذه أم ماذا؟

قالها وتوقّف عن سيل ضرباته فيها، من ثمّ جلس خائِرَ القوى ليُريح أنفاسَه من معركةٍ أقام لها جيوشهُ وأشهرَ فيها جميع أسلِحتهِ، معركةٌ خصمُه فيها حمامةُ سلامٍ.. بنَت عُشّها على طرفِ نافذتِه، فحَقّ عليها قوله: أن دمِّرها تدميرًا!

قليلًا علِمَ ماهرُ بأنّ أقبحَ الجيوشِ وأوهنَها تِلك المُدجّجةُ بقوَّةِ الغضب وثورةِ الانفعالات اللّحظيّةِ، وأنّ الهزيمة حتمًا ستطالُ قائدها وأعوانَه؛ لارتباك مقاصدهم، فحمائمُ السّلام ترحل بعيدًا عنهم وتترُكُ لهُم الخراب وعذاب الضّمير.

وعلى عكسِ (ماهر) الذي عاد غاضبًا من دار (أبي العبد)

فصبّ جام غضبهِ على ضحى، ولجَ (سالم) دارَه مهمومًا حزينًا، فما كان ليتخيّل كلّ هذا الذي حدث هناك، وكأنّ على رأسهِ الطيرَ أو كأنّه أفاق توًّا من كابوسٍ تخدّر له عقلُه وارتجفت له جوارِحُه. وما كان شيئًا كهذا ليمُرَّ على (سلمى) مرورَ الكِرام، فهي أدرى النّاس بمشاعر زوجِها الغالي، فذلك الهمُّ الذي بسط حصيرَه الخشِن على أرضِ قلبه الرّقيق، بات يلقي بِظلالِهِ على ملامِح وجهه الهادئة دومًا والمُبتهِجة في كلّ حين.

حالُه هذه؛ جعلتها تتفادى الأسئلة الكثيرة التي تدور في عقلها حتّى يتبرّع هو بالحديثِ عنها دون أدنى جهدٍ منها، ألقى التحيّة عليها، وترك لجسدِه حُرِّيّة الارتماءِ على الكنبة إلى جوارها بعد أن جاوبتْهُ التحية بأحسنَ منها، وعمّ الصّمتُ أرجاءَ المكان، خاصّةً والأطفالُ جميعهم نيام.

بادرتهُ بكفّ تمسِّدُ شعرَهُ، وبذراعٍ تُقرّبَ رأسَهُ إلى كتفها كي يلقي حِمله عليه فلطالما وضعَ على كاهلِهِ حِملها وما اشتكى.

- (سلمى) يا حبيبتي، أنا مُتعَبٌ جدًّا اليَوْم، فهلّا ضممتِ رأسي إلى صدرك لكي أسمع موسيقى نبضك فأنعمَ بالرّاحة والسّكينة، فكلي توقٌ لنبضاتها المُخمليّةِ وهي تنسابُ بسلاسةٍ تشحذُ هِمّة الفرح في دمي.

هنا، تفعلُ سلمى ما طلب منها وهي تعلمُ بأنّ الأمر عظيم، وبأنّه ما اشتكى تعبًا من يوم عرفتهُ إلّا فيما يمُسّها هي شخصيًّا أو

أحد أفراد عائلته، لكنّها تنتظِرُه كي يبوح فتصمُتْ. حتّى فاجأها بسؤالٍ كادت تطير له فرحًا:

- (سلمى)، هل تريدين أن تخرجي معي غدًا صباحًا علّكِ تركبي الأُرجوحة وتتأرجحي بها قليلًا كما تمنّيتِ من قبل؟ علمتُ حقًّا أنّ هنالك واحدة في طريق العودة من النّبع، وأحبُّ أنْ تجرّبيها قبل أن يقطّع رجالُ القرية حبالها إِربًا بشجرةٍ تحملها، فما أظنّهم مستبْقيها أكثرَ من أيامٍ معدودةٍ؛ إذ بِعيني (سلمى) تلمع، وتنتفض ملامحُِها الملائكيّة لسماع حديثه بهجةً، من ثمَّ تعلوها علاماتُ الاستغراب:

- بالتّأكيد خذني معك، احملني لأرى الدّنيا من فوقها وبين ذِراعيك، دعني أصِلُ إلى السماء حيثُ ابني الحبيب، فأطمئنّ عليه وأهمِسُ في أُذنهِ أنِ انتظرني، سآتيك ونعيد استنساخ ذكرياتنا معًا، ونصنع لحظاتٍ جديدةً سعيدةً وكثيرة معًا! أليس كذلك يا سالم؟

- نعم يا حبيبتي، هو كذلك بإذن الله.

- ولكن ما قصّةُ قطع الأرجوحة! ومَن هُم الذين يتآمرون عليها لقطعِها؟

- بالنّسبة لقطع الأرجوحة، فرجالُ القرية غاضبون من النّساء حين اكتشفوا أنّ لهنّ متعةً تسعدُهنّ من خلفِ ظهورِ الجميع، واعتبروهُ تآمرًا عليهم، وخرقًا لعادات القرية، واستهتارًا بهم، ومسًّا

فاضِحًا برُجولتهم، أعان الله المرأةَ على حياةٍ تملؤها التّضحيات ولا فسحة حقيقيّة تلجأ فيها لنفسِها، فتكتشف ثرواتٍ مدفونةً فيها، وبفعلِ التّنقيبِ تنجلي أمامها وأمامَ الجميع للعيان.

يَقولُ قولهُ هذا، ويجذبُها إلى صدره، فيحتضنها ويربِّت على كتفها مطمئنًا إيَّاها، وسارِحًا فيما قد تأتي به الأيّام من مُفاجآت علّها تَكُونُ سارةً.

ما كان اجتماعًا عاديًّا هذا الذي هزّ بيوت قرية (أبي زيد) هذه اللَّيلَة، فقد كان لكلِّ دارٍ فيها زلزال، ولدار (أبي العبد) النّصيبُ الأكبر مِنْه، ففيه يقعُ مركز الزِّلزال، وفيه يبقى أثرٌ لا يمْحَى.

فـ (أبو العبد) سَمِع اللّيلة كلامًا لو نزل على جبلٍ راسخٍ لهوى على الأَرْضِ في حينِهِ تُرابًا مُتناثرًا في كلِّ صوبٍ، فهذا ابْنُ أخيه يهدِّده في ابنته، فإمَّا أنْ تُمنَع عن الخروج من المنزل كي لا تذهب للتأرجُح، وإلّا سيمتنعُ عن زواجِهِ بها، ويمنع الجميع من طرق بابهم للزّواج منها، فابنُ عمِّها بذلك يقوم بتشويهِ سُمعتها فتبقى ابنتُه وحيدة دون زواجٍ أو أولاد، مُستقرّة في داره طوالَ عُمرِها فلا يقربها أحدٌ كمصابةٍ بمرضٍ عضالٍ لا بُرء منه.

ها هو أبو العبد يَدْخُل حُجرة نومه صامتًا مهمومًا يُعييهِ التّفكيرُ في مستقبلِ ابنته، فهل هنالك أغلى من قرّةِ العينِ؟ لحِقته أمُّ العبدِ تركُضُ خلفَه كتابعٍ يتبعُ سيِّدَه، ويخاف أن ينقِم عليه في أي لحظة.

- متّعك الله بالصّحة والعافية، ما كان اليومُ يومًا عاديًّا، والإرهاق حقًّا بادٍ عليك.

- أخبري ابنتك بأنّ حفل زفافِها سيكون يوم الخميس بعدَ غدٍ، ويُمنع منعًا باتًّا خروجها من المنزل حتى يأخذها (رائد) من يدِها إلى دارهِ، واستعدّي أنتِ من الآن لذلك.

- ولكن بقي عشرون يومًا على موعد زفافها، فما الذي قدّمَه فجأةً هكذا؟

- قررتُ ذلك الآن، فلا تُجادليني فيه، ونفِّذي قولي دون نقاش.

طأطأت رأسَها صاغرة مؤمِّنةً على كلامه، وغادرت الحُجرة تفكّر في ابنتِها التي أخبرتها قُبيلَ المغرِبِ بأنها لن تتزوّج (رائد)، فكيف تُخبرها بأنّ الحفل تقدَّم، وسيصبِحُ (رائد) زوجَها على سنة الله ورسوله بعد يومين فقط من الآن!!

«رحمتُك وحدها ستُنجيني من حِملٍ يُثقِلُ كاهلي يا الله»، قالتها في سرِّها وبدا أثرُها واضحًا على ملامحها، وحدبةً ألّمت بظهرِها من حينه. توجّهت بعدها إلى غرفة ابنتها كي تطمئنّ عليها، وتمهّد لها خبرَ تقديمِ حفل زفافها، طرقتِ الباب، وولجتْ فأغلقت الباب خلفها بهدوءٍ وهي تنظُرُ إلى ملاكها الطّاهر (مريم) وهي نائمة، تلك الصّغيرةُ التي ما كبُرت في نظرها يومًا، ومن يوم أنارتِ المنزل بقدومها، كانت أنغامُه التي لا تأفُل، وزهرَهُ الذي يملؤهُ أريجًا ولا يذبُل.

تُمسِّدُ شعرَها، وتدعو لها بالسّعادة، فتتثاقلُ دمعةٌ في مُقلتيها، تمسحها سريعًا قبل أن تسقُط على وجه (مريم) فتوقظُها إنْ بلّلتْه، لطالما كانت مريمُ الأقربَ لأمّها وهي أكثر مَن يشعر بحُزنها وفرحها وحتّى ضِيقها المكتوم، فمَن مِنْ بعد زواج صغيرتِها سيشعُرُ بها في المنزل! لطالما تمنّت أن تسعد بزفِّها إلى بيت زوجها الذي اختارهُ قلبُها، ولكنّها بعد سعادتها لفرحةٍ قرأتها بين عينيها بخطبتها يومها، تجِدُ قبضةً تعصِرُ فؤادها لما رأتهُ من تبدُّلٍ لحالها ورفضٍ مُفاجئٍ لعريسها، من ثمَّ تقديمٍ لموعد الزِّفاف، فتتنبّأُ بحالةِ تخبُّطٍ تجري في الكواليس، ودورٍ ثانويٍ اعتادته، حيثُ لا يسمحُ لها بتغيير شيء، فيا لها من تعِسة هذه الليلة، حيثُ يبدو بأنّ قرةَ عينها سترثُ ذات الضّعف الذي يسري في دمها هي، أو أنَّهُ سيتسرّبُ إليه رويدًا رويدًا.

فتحت مَرْيَمُ عينها لتجدَ أمامها وجه أمّها الجميل، فتعتدل في سريرها متسائلة:

– أمّي، كيف حالك؟ ما الخطب؟

– الحمد لله، لا شيء يا ابنتي، قلقة عَلَيْكِ كثيرًا، رقدتِ مباشرة بعد قدومك من عند الخياطة، وكنت في حالةٍ عجيبة، ولَمَ تهُبّي لمساعدتي في تحضير الصّحون وكاسات الشّاي لضيوف والدِكِ هذا المساء، كما عندي خبرٌ ربّما يصدمُكِ، ولكنّه واقع.. ولا بدّ من التعامل معه بحكمة ورويّة.

– لقد كُنتُ متعبة فقط يا أمّي فآثرت النّوم، لا تقلقي عليّ، وآسفة بأنّي لم أكن إلى جوارك كي أساعدك، ما الخبر الذي سيصدمني؟ أخبريني..

– والدُك قرّر بأن يكون حفل زواجك يومَ الخميس القادم، أي بعدَ يومين فقط، ولا نملك سوى التسليم وبدء إجراءاتنا للتحضير له.

– ماذا؟!! لا.. لن أسلِّم، ولن أتزوّج (رائدًا) كما أخبرتُك سالفًا، وإلّا فالموتُ أولى بي من حياةٍ مع رجلٍ كهذا!

– لمَ كلّ هذا؟ (رائد) ابنُ عمّك، وإن لم تتزوّجيه بعد إعلان الخطوبة سيظُنُّ النَّاسُ بأنّ بك عيبًا تركك لأجلهِ، ولن يتزوّجكِ أحد، إنّما اعتراضي على العجلة في إتمام الزّفاف، وليس على شخص العريس يا فتاتي!

إذْ بهما وهما على هذه الحال من شدّ وجذبٍ، تسمعانِ طرقًا على الباب، ويتسلّلُ نورٌ من الخارج على مهلٍ بفتحِ الوالدِ للباب، فتصمُتانِ وتُنصِتانِ معًا لجُملةٍ وَاحِدَةٍ تَخترِقُ آذانهما:

– زواجُكِ الخميس يا مريم، ولا تكثري التمرُّد فلنْ يُفيدك معي.

– ولكنْ يا أبي، وإن عرفتَ أنّ (ماهر) اعترض طريقي اليَوْم أثناءَ عودتي من الخيّاطة، وكان يودّ أن يقابلني بعيدًا عنْ عيونكم، وتصرّف بهمجيّةٍ جعلتني أكرهه، ولا أرغب بالزّواج منه مُطلقًا.

– ابن عمّك وخطيبك، وبالتّأكيد لن يؤذيكِ، انتهى.

يقولها الأبُ ويغادر الغُرفة بحزم دون أن ينظُر خلفه.

«نعم انتهى يا أبتِ، فلِكُلِّ بدايةٍ نهاية، ولكلِّ حياةٍ غاية، ولَم تكُن غايتي يومًا أنْ أحيا حياةً يختارُها غيري لي، وإنْ لم يكُنْ برضاك اليَوْم، فسيلقَى قبولك لاحِقًا حين يجبِرُك ألمي المُشتعِلُ أمامك في غاباتِ جسدي على التّصرُّفِ لصالحِي قبل أن يأتي عليَّ أمامك ويلتهِمني بِكُلِّي»

قالتها (مَرْيَمُ) لأمّها الباكية أمامها، وانسكبت الدّموعُ من عينِيْها أنهارًا، وهي تنظُرُ إلى ستائِر غُرفتها المُنسدِلة على النّوافذ، والتي تُخفي خلفَها ظُلمةً لا بدّ لها من انقشاعٍ مهْما طال ليلُ الشِّتاء.

(١٤)
«الفرحةُ المسروقة»

سِربُ حمامٍ يرفعُ أقدامَ (سلمى) إلى الأعلى وهي تتأرجحُ على الأرجوحةِ؛ كي ترتَفِع ناحِ الشّمس، تلمسُ بأصابعِ قدمِيها الأفُق، وهذه أسرابُ يمامةٍ تجُرُّها إلى الخلفِ طاويةً ركبتيها نزولًا لتكون أقرب إلى الأرض لتُعيد الكرَّة مرّاتٍ ومرَّاتٍ، ضِحكتُها تلك التي غابت عنها عُمرًا ها هي تعود مدوِّيةً، وصوتُها الجميل يداعِبُ نسماتِ الهواء العليلة بذبذباتِهِ الرّقراقة، فتبتسِمُ لها ومعها وهي تُغنِّي: يا صباح الخير يا صباح الخير.. يا أهل البندر.. يا صباح النور، فيهُبُّ عليها سِربُ غِربان يتولّوْن قضمَ حِبال الأرجوحةِ بمناقيرهم، والشّرُّ يلمعُ في عيونهم رغبةً في إسقاطها، فيهتزّ جسدُها خوفًا، وتُشلُّ حركتها من جديد فتقع على ظهرِها متألمةً حزينةً.

تُعيدها قُبلةٌ من (سالمٍ) على جبينها المُتعرِّقِ للحياةِ، لتكتشِف بأنّها كانت تغرقُ في حُلُمٍ جميلٍ تحوّل إلى كابوسٍ مقلِقٍ، وأنّها مازالت مُعاقة، وبأنّ ساقيْها لا يستجيبان لأوامرها بعد، فتستعيذُ من الشيطانِ الرّجيمِ ثَلاثًا، وتنفُثُ مع كلّ وَاحِدَةٍ منها نفثةً على كتفها الأيسر فتنسى ما جرى وتبتعد عن تأويلِهِ، فهي تعيشُ على ثقةٍ بأنّ

الله سيكتُبُ لها فرحةً قريبةً تجعلها تمشي على قدميها من جديد.

وها هو زوجُها يُلقي عليها تحيّة الصّباح، ويخبرُها برغبتهِ في الخروج سريعًا حالما تنتهي من صلاة الفجر، فهو سيحملُها إلى الأرجوحةِ كي يُحقِّق حُلمها في أسرع وقت ممكن، ألبسها بيديه الحانيتين ملابس ثقيلة؛ فالجوّ خريفيّ باردٌ بالخارج، والشتاءُ على الأبواب، ها هما يردِّدانِ معًا وراء المؤذِّنِ وهو يُعلنُ بأنّ كلمةَ الله هي العُليا، وبأنّ الله أكبر من كلّ كبير مهْما تجبّر، يُقيمانِ الصّلاة بعدها، ويسرعُ سالم إلى خارجِ المنزل حاملًا لها، ذِراعاها تلُفّ عُنُقَه من فوقِ أكتافِه، وذراعاهُ هو تحتضِنُ جذعها بكلِّ قوّةٍ وثبات.

- أشعُرُ بأني عروسٌ اليَوْم. (تهمِسُ بها في أُذُنِه).

- بل أنتِ في قلبي عروسٌ تزدادُ بهاءً كلّ يوم.

- سالم، مِن أيِّ عالمٍ أنت؟ ما وُهبتَ إلّا طيبًا ينبعِثُ منك.

تعلو ضحِكاته فيلجمها بشفتيهِ ويقول:

- دعينا نُنهي المُهمّةَ قبل أن يصحو البعضُ فنُصبح حديثَ القريةِ إلى يوم الدِّين.

يضحكانِ بصوتٍ واحدٍ، ونغمةٍ مُنخفضةٍ؛ خوفًا على سرِّهما أن يُكشف، وحين تظهرُ الأرجوحةُ الخجولةُ أمامَ ناظِرِهِ يهمِسُ لها وهو يُشيرُ إليها:

- انظري معي إليها يا سلمى، ها هي واقفةٌ تنتظِرُ قدومكِ

إليها، فهلّا أمعَنتِ النَّظر في انحنائها بكُلّها تحيّةً لكِ يا مولاتي؟ هيّا فلتُشرِّفيها بجلوسِكِ عليها.

وهنا تخفّفَ سالم من حُمولتِهِ المُحبّبةِ، فأجلس (سلمى) جيّدًا على الخشبةِ، وأسندها بجسدِهِ من الخلفِ حتّى أحكمتْ قبضتها على الحِبال، ووازنتْ جسدَها عليها فثبتتْ، ساعتَها احتارتْ ملامحُها بأيِّ طريقةٍ ترسُمُ أفراحَ قلبِها عليها لتُبرِزها أمام سالمٍ كما يجب.

بدأ (سالم) العدّ وهو يشُدُّها بالأرجوحةِ إلى الوراء، من ثمَّ يُعيدُها إلى الأمامِ بِحرصٍ شديد.. واحد.. ويُكمِلُ العدّ.. اثنان، ويشُدُّها أبعدَ ما يستطيع عن مركزِها ويترُكها تفلِتُ قليلًا من يدِهِ لكي تعود إليه، و(سلمى) ثابتةٌ في محلِّها، وروحُها متطايرة في الأجواء.. ثلاثةٌ، ويتابعَ الشّدّ لأبعد من النُّقطةِ السّابقة، ومن ثمّ الإرخاء بحرصٍ ورويَّةٍ كي لا يحدث ما لا يُحمدُ عُقباه.

أكمل (سالم) عدّهُ، واكتمل السّعدُ لهما بالجوارِ، وبهمسِها الذي أرادتْ، في أذنِ ولدِها حين تَكُونُ أقربَ للسّماء، وبأُرجوحةٍ كان الزّمانُ كفيلًا بإجبارِها على الابتعاد عنها بمنتهى القسوة، بعدها عادتْ سلمى إلى منزِلها محمولةً مجدَّدًا، قبل أن يتحسّس أحدٌ من أبناء القريةِ خروجهم وإيابهم. تنفّس سالم وسلمى الصُّعداء وتبادلا نظراتِهما المُنتصِرةَ، وارتمى كلّ واحِدٍ منهما إلى جِوار الآخرِ سعيدًا، تعلو شِفاهُهُما بسمةً تتخطى كلّ معنىً للسلام والرّاحةِ.

أثناء تسلُّلِ (سالم) حاملًا زوجتَه لاصطحابها للأُرجوحة، كان معظمُ رجال القريةِ من كبار السّن يؤدُّون صلاةَ الفجرِ في المسجِد، بعد التّسليم والذِّكر وجد أبو العبد الفرصةَ مواتية ليُخبر أخيهِ بخبر تقديم عُرس ابنته إلى ابنه، وبأنّ يوم الخميس هو موعدُ الحفل، فرحّبَ أخوه بالخبر، ووعد بأن يضع ابنه البارَّ (رائد) ابنتهم الغالية مَرْيَمَ في عينيه، وبأنّهُ سيكون هو المسئول عن تمهيد جميع المعوقات في سبيل حياة هانئة ينعمانِ بها معًا على حدّ سواء، وإنْ كان محمدٌ وَلدَه؛ فمريمُ الغاليةُ ابنةُ الغالي أخيهِ، ويوم السّعد يوم تنضمُّ إلى أسرتِهم المُحِبّة لها.

إلّا أنّه من مفارقات الحياة أنّ ذات الصّباح الذي يجلِبُ لأحدِهم السّعد مع كلّ خُصلةٍ للشمس توزِّعها على رعاياها من سُكَّان الأرض، قد يجلِبُ لأحدِهم الوجعَ والقهر مركّزًا فلا تطلُع عليهم به شمسٌ مهما أرسلت نورها كمُمَسِّدٍ لجروحهم؛ وهذه حال (ضحى) اليوم.

فـ (ضُحى) طريحةُ الفِراش لا تقوى حتّى على القيام لأداءِ صلاةِ الفجر، تفتحُ عينيها فلا تتسِعُ لترى بملءِ حدقتيها كما اعتادتْ، فتذكّرتْ قضاءها جُلّ اللّيل باكية من أثر أوجاع الضّربِ المُبرِّح ومشرطِ الكلام البذيء الذي قطّع أوصالها إِرَبًا إربًا، تُحاوِلُ تحريك ساقيها فتتوقّف عن ذلك من شِدَّةِ الألم، إلّا أنّ مغصًا حادًا

بدأ يلُفُّ أحشاءها، فيضطرّها إلى ثني رُكبتيها لتضُمَّ بساقيها بطنَها قدرَ المُستطاع كي تُخفِّفَ تقلُّصاتهِ، وإذ بعدهُ بسائلٍ يجري بين فخذيْها علمتْ بهِ خبرَ فقدها لجنينها المنتظر منذُ زمن، جنينها الذي كانت على استعدادٍ أن تتناسى قسوة (ماهر) وأهلهِ لأجله ولأجل أمومتها، ولكنّ كلمة القدر وأدتْ بفعل زوجها الغادر تضحيةً عظيمةً كهذه- نوتْها سابقًا- من جذورها.

مدّت يدها وهي خائرة القُوى لتستجير بذابح حِلمِها، لتُعاوِدَ ضمّها إليها غير واثقةٍ من عونهِ لها وتجهشُ بالبُكاء من هول ما فيها، فيتوقّف صوتُ شخيرهِ الموزونِ فجأةً ليصيح فيها:

- يووه، نامي يا امرأة وكفاني منكِ إزعاجًا، ألا يأتيني منكِ إلّا الهمُّ والغمّ، أخذكِ الله إلى جوارهِ وأراحني منكِ.

تُتمتِمُ المسكينةُ ضعفًا وانهزامًا، ألمًا وقهرًا، كمُحاولةٍ أخيرةٍ منها للصُّمود:

- حسبي ربّي، حسبي الله ونعم الوكيل.

تقولُها (ضحى) في سرّها، وتستسلِم لثقل جفونها المتورِّمة فيغطّي الظّلامُ حدقاتها، وشلَلٌ في الإحساس يأتي على كُلّ خليّةٍ فيها، تدخل بعدها في غيبوبةٍ تُنقذُها من آلامِها وأقرب النَّاس إليها.

يصحو (ماهر) مفزوعًا، فالشّمسُ ساطعة بالخارج، وقد تأخّرت (ضحى) في إيقاظه وتقديم وجبة الفطور على غيرِ عادتها،

ليجدها فرصةً جديدة في صبّ جام غضبه عليها، فيهزُّها بيده ويصرخُ فيها:

- قومي أيّتُها الكسلانة، تأخّرتُ على عملي وأنت تغطّين في نومك العميق، كم أنت غبيّة!

يستغربُ أمرَها، فما من حركةٍ تصدُرُ عنها أبدًا، رغم أنّهُ هزّها بشدّة عدّة مرّات، بعدها كشف عنها الغِطاء ليجدها غارقةً في بحرٍ من الدِّماء، وأعضاؤها لا تُحرّك ساكنًا، ومن حينهِ شعرَ بصاعقةٍ نزلت على قلبهِ يشتمُّ لحرائقها فيه رائحةَ شواءٍ ما درى كيف يمنعها ليبقى على ثباته ورباطة جأشهِ المُعتادة، كي لا تفيقَ (ضحى) وتقرأ الخوفَ في عيونِه.

حينما أدرك أنّ الأمر ليس عارضًا، وبأنّ ضربَه فيها قد آذاها بأبشع صورةٍ، فقدَ نتيجةً له ولدَهُ الذي كان يتمنّاه، جثا على رُكبتيه يتحسّسُ نبضها، وإنْ كان قد فقدها هي الأخرى برعونتهِ وشدّةِ بأسه، ولكنّ النّبضَ كان محسوسًا ضَعِيفًا متسارِعًا، ممّا جعلهُ يطمئنّ بأنّها مازالت على قيد الحياة.

هَرَع خارج الغرفةِ يركُضُ ويصرخ في أهل البيت كيما يُنجدَهُ أحدٌ في مصيبته هذه، فكانت أمّه أوَّل المُجيبين، ومن خلفِها ركض زوجاتُ إخوتهِ فزِعات على الصّوت، تسمّرن لوهلةٍ في أماكنهِنّ متأمِّلاتٍ (ضحى) في هيئتِها المُخيفةِ تلك، فرضوضٌ زرقاءُ تملأ

وجهها وذراعيها، حتّى ساقاها لم يسْلما من آثار الضّرب، والصّدمةُ الكُبرى كانت لرؤيتهنّ لها غارقةً في دمائها، وبدأن محاولاتهنّ الحثيثة لإفاقتها وإعادتها إلى وعيها بكلّ السُّبُل، وهوَ مِن بعيدٍ ينظُرُ إليهنّ بوجهٍ من خشب لا يكادُ يشي عن مشاعره بشيء، بيْدَ أَنَّهُ يرى في قرارةِ نفسهِ استحقاقها لكلِّ لكمةٍ لكَمها إيّاها فهي خائنةٌ للعهد خارجةٌ على القوانين والأعراف، ولَم تلقِ لهيبتهِ وسُلطتِه عليها بالًا، فساء في نظرِهِ عملُها، ولكن لو أنّها لم تكُنْ حُبلى لهانَ عليهِ كلّ شَيْءٍ يتبعُ ضربهُ لها.

(١٥)
«الهروبُ الكبير»

المنازِلُ ها هُنَا مازالت قائمةً هذا الصّباح، والحياةُ تسيرُ كسابِقِ عهدها فهي لا تقفُ لأحد، ولكنّها قد تُنحِّيهِ جانبًا أو تدوسُه تحت تروسِها، ففي بداية اليومِ الأوَّلِ الذي تلا صدورَ الأمرِ بمنعي والنّسوة من الخروجِ من البيوت إلّا برِفقةِ أزواجِنا للضّرورةِ القصوى، والذي يبقى نافذًا لأجلٍ غير مسمّى لا يعلمُ وقت انتهاء سريانه إلّا الله، خرجَ رِجالُ القرية إلى أعمالهم مزهوِّين بكسرِ إرادتنا الغالية، فجلسَتْ كلّ وَاحِدَةٍ منّا على الكنبةِ أسفلَ نافِذة منزلها، والمُطِلّةِ على البيوتِ المجاوِرةِ وساحاتها والأزقّة، مُشرَعةٌ ستائرُ نَوافِذنا المصنوعةِ بقِماشٍ رخيصٍ يؤدّي الغرضَ المطلوب مِنْه، مُحاكٌ على شاكلةٍ واحدة متواضِعة التّصميم من صُنعِ ربّةِ المنزِلِ نفسهِ كعادةٍ جرَتْ في مُعظم بيوتِ قريتنا، تشي ببساطةِ سكّانها، إلّا أنّ الغنى يملأُ قلوبنا من أثرِ طبيعةٍ تُغدِقُ علينا من خيراتها الحِسان.

ها هُنّ يجلِسنَ ذات الجلسة التي أجلِسُ، وكأنّنا اتّفقنَا عليها في سواد اللّيلِ تحت جُنحِ الظّلام، ولكنّنا تصرّفنا بما تُمليه علينا أرواحُنا المُنهكة والمتطلِّعةِ لنزالٍ من أجل أن تفوز بذاتها، ولكنّ سيفها البتّار

يُواجَه ببندقيَّةِ صيدٍ لا ترضى إلّا بقلبِ الفريسةِ لتخترِقَه، فتأتي عليها بكُلهَا كي تُقدّمَ على طبقٍ من ذهبٍ سائغٍ للآكلين.

سارحاتٍ في حياةٍ نقعُ في أسرِها، وراء الجدرانِ نقبعُ لنُسيِّر الحياةَ خارِجها، ويبقى الرَّجُلُ السُّلطان الذي يجلِسُ على كُرسيّ الحُكم، فَلَه الهيبةُ والمكانةُ والسّيط والكلمة النّافذة، أتابعُ بعيني سلاطينَنا وهم يمشون على الأرض التي امتلكوها بامتلاكِ رعاياهم، يمشونَ عليها رافعي رؤوسهم زهوًا وكبرياءً من جديد، وها قدْ خلتِ الأزقّة والحارات إلّا منهم ومِن بعض الصِّبيةِ والفتيان يتسامرون أو يركضون حول- وفوق- تلالِ قريتِنا، وشجيراتها المتناثِرةُ هنا وهناك. قابعاتٌ نَحْنُ في الظِّلّ، كُلَّما رفعت إحدانا عينها لتُلامِسَ عينَ شقيقة الشّقاءِ في نافِذةٍ أُخرى؛ أشاحتْ بها بعيدًا كي لا تتعمَّق أحزانُها أكثر، فتُضافُ إلى بِئرها المالِحةِ ماء تفيضُ فتملأُ العيونَ دمعًا لا يجِفّ، إلّا أنّ وجوهًا اعتدتُها كلّ صباحٍ لم تكُن هناك عند موعدِ الأحلام المسروقة، فالعروسُ (مريم) وابنتي الغالية (ضحى) حتّى الظِّلّ لم ينتسِبا إليه هذا الصباح كما انتسبنا نحنُ، فهُما لم يأتيا.. ولا حتّى بأطرافِ ثوبِهِنَّ، مَرَقا من أمام نوافِذِ منازِلهِنّ، فأيُّ صباحٍ أتى عليهِما؟ وهل بالأحزان بادرهُما أكثر منّا جميعًا؟ كُلُّها تساؤلاتٍ قفزت إلى عقلي وأنا أتابعُ مشهدَ انهزامنا على الكنبةِ صاغرة.

وأنا على هذه الحالة من الحيرةِ وقلّةِ الحيلةِ، إِذْ بطفلةٍ تمرُّ علينا واحدةً تلو الأخرى، تهمِسُ بِشَيْءٍ فتُزغرِدُ عاليًا تلك التي سمعتْ قولها، وتُتبِعُها بالمُباركةِ والتَّهنِئةِ، ممّا يجعلني أزدادُ فضولًا لمعرفة السبب- خاصةً بأنّ الزمنَ زمنُ قمعٍ لا مُبارك- مع كلّ خطوةٍ تقتربُ فيها تلك الصغيرةُ منّي أكثر.

جاءتني الطّفلةُ مناديةً:

- يا خالة، أنتِ مدعوَّةٌ لحفل زفاف (مريم) غدًا الخميس، وسيكون في دارِ والدِ العريس، لقد أبلغوني بإخبارك وجميع النّسوة للتأهّب لها والحضور من بعد صلاة العصر.

- (مريم)، مَن قدّم زواجها هكذا! ما الذي حدث؟

- ما الذي أدراني يا خالة! الكلّ فرح بخبر زواجِها إلّا أنتِ؟

- لا عليكِ يا فتاتي، مبارك لهما..

قُلتُها.. وفي نفسي ألفُ تساؤل وألفُ جوابٍ، إلّا أنّني على يقينٍ بأنّ خبر الأرجوحة الذي انتشر وأغضب رجالَ القريةِ لم يكُنْ ليمرّ دون زوابع وأعاصير تأتي على بعضنا أكثر من الآخر، يا ليتني ما ربطتُها ولا أذقتُ نساء قريتنا حلاوة الحرِّية، وما تذوّقتُها معهُنّ وبين أيديهنّ، يا ليتني حسبتُ حسابَ انسحابَ بِساطِها الملوَّن من تحتِ أقدامنا على حينِ غِرَّةٍ، ولكن مَن ذَا يأمَنُ وُقوعًا مُحتّمًا تُكسَرُ له الأعناق إِنْ تعثّرت الأقدامُ فجأةً؛ ساعةَ الانحدارِ من القمة؟! تالله، ما هنالك من مأمن.

مرّ اليَوْمُ بطيئًا مُمِلًّا كأيّامٍ كثيرةٍ قبل تشْييدِ أُرجوحتنا، تثاقلَ فيه خطوي، وعزفتْ عن الغناء حُنجُرتي، فمشغولة البالِ مازلتُ (بضحى) ابنتي، لعلّها تُكابدُ أعراضَ الحملِ في الفراش كما اشتكت بالأمس من كثرةِ نومها والتّعب الدّائم، لا بدّ لي من الاستئذان للخروج من الدَّار طلبًا للاطمئنان عليها في بيت العائلة الذي تسكُنُ فيه لعلَّ الأفراح تغمُر قلوبهُم هناك، ولا وقت لديهم لأحزانٍ نجترُّها الآن نَحْنُ، لعلَّ هنالك منزلًا واحدًا على الأقلّ سلِمَ من عواقب ذلك البركان اللّيليّ الذي ما عرفنا تفاصيله حتى الآن.

«أكانَ بُركانًا أم زلزالًا؟ ذلك الذي هزّني بشِدّةٍ وكأنّما قذفني ككُرةٍ مَطاطِيّةٍ على جُدرانِ الغُرفةِ الأربعة واحدًا تلو الآخر مضرجةً بالدِّماء متأوِّهةً دون مُجيب، هُلاميّو التّواجد هُم حين نحتاجُهم؛ تركوني لوحشِهم الكاسر حتّى نال منّي ومن طفلي، وأتوا ليُلقوا عليّ نظرتهم الأخيرة من بعد الضّربةِ القاضية، يا ليت ساعتي قامتْ وما تجرَّعتُ كأسَ الهوانِ والظُلم هذا على يديك يا زوجي العزيز».

حدّثتْ (ضحى) نفسَها وهي تفتحُ عينيها لتجِدَ وجوهًا ألِفتْها، ولكنّها تتبعُ من لن تأمنَ نفسها معهُ أبدًا بعد اليوم، ووجوهُهم تذرِفُ الدّمع قطراتٍ متناثرةً على الوَجنات، فهل يُقارنُ ثمنُ دمعِهم هذا، بثمنِ نبضِ جنينها المنحورِ ودمِها المُراق ظُلمًا؟

ها هي تسمع صوت (أمّ ماهر) تُحدِّثها:

ـ (ضحى)، هل أنت بخير؟ ما الذي حدث!؟ الحمدُ لله أنَّكِ أفقتِ يا ابنتي، فقد قلقنا عَلَيْكِ كثيرًا، نصف ساعة وَنَحْنُ نُحاوِلُ إعادتكِ إلى وعيك، الحمد لله على سلامتك.

– أريدُ ماءً.

أجابتها ضحى وهي تبلَعُ ريقها بصعوبةٍ بالغة؛ فحلقها شديدُ الجفاف، ولِسانُها متثاقل، فجلبتْ إحدى الحاضرات لها كوبًا من الماء، تجرّعتهُ في نفسٍ واحدٍ من شدّة العطش، أغلقت بعدها عينيها لينحدر الدمعُ منهُما حزنًا وقهرًا، أمام شهودِ فاجعتها الكبيرة.

– ستكونين بخيرٍ يا (ضحى)، لا تقلقي.. صحيحٌ أنّكِ فقدت الطفل ولكنّ القابلة طمأنتنا بأن الحادِثَ لن يمنع حملك لاحقًا وعَلَيْكِ بالرّاحةِ لبضعةِ أيامٍ لكي تستعيدي عافيتك، صحيحٌ أنّها استغربتْ آثار الرضوض على جسدك، ولكنّي أخبرتُها بأنّكِ وقعتِ فحدثَ ما حدث، فإيَّاك أن تقولي غير هذا إن جاءت تطمئنّ عَلَيْكِ غدًا كما أخبرتني، هل تسمعينني؟

هزّتْ رأسها موافقة، وأشاحتْ بوجهها جانبًا دون أن تنبِس ببنتِ شفة، وتُحدِّثُ نفسها بمرارةٍ:

«ألهِذا الحدّ لا يعنيها أمري!!؟ فولَدُها وسمعتُه وخوفها من أحاديث قد تدورُ بين الناس عن قسوته معي وضربه لي في القرية؛ أهمّ منّي ومن جنيني، فلا عزاء لي ولا بلسمًا بكلماتٍ حانية مواسية

يخرجُ من فمِها؛ كي يُخفِّفَ بعضًا من الألمِ اللّعين الذي أعانيه بسبب همجيّة ولدها ورجولةٍ زائفة صوّرت له الضّرب وسيلةً لإخضاعي وتحقيقِ نشوةِ الانتصار عليّ بجبروته وطغيانه».

كما أنّ لحديث النَّاسِ وأقاويلِهم خوفًا في النّفوسِ وجبروتًا في كبحِ الألسنة وطمسِ ما بات جليًّا أمام العيون المُجرَّدةِ، كضربٍ مبرِّحٍ طال (ضحى) وفي اختلاقِ الأسبابِ المُقنعةِ لحادثٍ كهذا الذي تُعاني آثارَه، للتّأكُّدِ من أنّ حديث الواجِهةِ حديثٌ ليس فيه انتقاصٌ من الرّجل وقدرتِهِ على وزن الأمور مع زوجه بعقلهِ وحكمته لا بيدِهِ، فإنّ إعطاء الضوء الأخضر لأحاديثَ تقدحُ في خُلُقِ امرأةٍ أو تنالُ من سُمعتها وقد تحُكمُ عليها بالبوار؛ شيءٌ واردٌ، ويُقامُ له ألفُ حِسَاب، فتقدَّمُ البناتُ وأرواحُها البهيّةُ كقرابين على المذابح في سبيل الحفاظِ عليها؛ كالزُّجاج حريٌّ به ألّا يُخدش. وذلك الذي وعاهُ (رائد) على صغرِ سِنِّه فزاد على نارِهِ حطبًا كي يكون له ما أراد؛ كي تكون له مريم دونًا عن العالمين.

ها هي المواقِدُ في المنازل تشتعلُ، والذّبائح تُذبَحُ، ويُطبخُ الطَّعَام استعدادًا لحفل زفاف (مريم)، فإعداد أشهر المأكولات التّراثيّة الشّعبية، والخاصّة بمناسبةٍ كهذه هي مهمّةُ النّساء، ويتعاونُ فيها معهُنّ الرِّجال، فيتقاسمْنَ التّخطيط والتّحضير لها في كلّ بيت على أنْ يأتي الموعدُ، والجميع قد شارك مشاركة فعّالة تُثلِجُ صدرَ أهل

العريس والعروس، وتُخفِّفُ الأعباءَ المادِّية عليهم، وكأنّ الزِّفاف يخصّ كلّ بيت في القرية، فالفرحةُ ما كانت إلّا لتكبُر وتغمُر القلوب حين نشعُر بأهميّةِ اقتسامها وتداوُلِها فيها بيننا.

لا يكادُ (رائد) يصدِّقُ أنّ الأفراح تدخلُ بابَه، وتُراقصهُ هذا الصّباح، فقد أفاق على أصواتِ أصدقائهِ من خارج المنزلِ منادينَ عليه فالوقتُ قد تأخّر، ولا بُدّ لهم من مساعدته في ارتداءِ ملابسهِ بعد الاستحمام، فهذا هو يَوْمُه المشهود والمُنتظر.

يفتحُ لهم البابَ بعينٍ واحدة، ويترُكُ بقايا النُّعاس في عينهِ الثّانية ليتلذَّذَ بمذاقها، هو لم يأخذ قسطهُ من النومِ كاملًا بعد، فقد بات اللّيل جُلَّهُ يفكِّرُ في استقبالِهِ لعروسِهِ في غرفةِ النّوم، وإلى أيّ مدى ستكونُ جميلة في ليلةٍ كهذه، وزاد عليه قلقٌ من أن تكون مازالتْ غاضبةً مِنْهُ بسبب آخر لقاءٍ لهما عند عودتها من الخيّاطة، تتراءى له صورُ أصدقائه على البابِ ضبابيّة غير واضحة المعالِمِ وهو يُحاولُ استيعابَ ما يجري من حولهِ، وإذ بهم ينظرون إليه باستغرابٍ شديد؛ أنْ كيف لعريس يوم دُخلته أنْ يبقى نائمًا لهذا الوقت المتأخّر فصلاةُ الظُّهر على الأبواب، يحملُه أصدقاؤه على الأكتاف، وضرباتُ الطّبل والدُّفِّ تتعالى من خلفِهم، والكُلّ مستمرٌّ بغناء الأهازيج المناسبة حتّى يُنهي مراسم الاستحمامِ فيستقبلونَه بالخارج كي يساعدوه في ارتداءِ ملابسه الجديدة، يزيّنوه بأطواقِ الورد ويرشّونهُ بالعِطر، من ثمَّ يصدحون بصوتهم الرجوليّ مازحين بحماسةٍ:

طلع الزّين من الحمّام .. الله واسم الله عليه
ورشّوا من العطر عليه .. وكلّ رجالُه حَواليه
ويتبعونها بـ:
شِنّ قليله.. شِنّ قليله... من هاللّيله صار له عيله

ترتسمُ بأجواء البهجةِ هذه ابتسامةٌ ضخمةٌ على وجهِ رائد، فألفُ فكرةٍ تدورُ في رأسِه سعادةً بكونهِ سيُصبِحُ ربّ أسرةٍ يتحمّلُ مسئوليّتها، ويكُونُ راعيًا عليها، فتكون (مريم) نواةً لتلك العائلة التي لطالما تمنّى امتلاكها، ومن اليَوْم تُصبحُ له الكلمة العليا، ويُصبحُ سيّدَ البيْتِ، وأهمّ شخصٍ فيه؛ اليوم بالذّات يُصبِحُ رجُلًا!

فِي انتظار قدومِ العريس في معيّةِ أهلهِ وأصدقائه، تجلسُ العروسُ أمام المرآةِ مزدانةً بفُستانها الأبيض، الحنّاء تزيّنُ كفّيها، وقليلٌ من الألوان والكُحلِ حول عينيها كي يُبرزَ جمالهُما، ولونٌ قُرمُزيٌّ خافتٌ تصطبغُ بهِ شِفاهها فيُنارُ له وجهُها جَمالًا وفتنة. تمدُّ المسكينةُ يديها مُرتجيةً كفَّ أُمِّها الدافئة، فكفُّها المرتعِشةُ خوفًا وقهرًا ستفضحُها أمامَ جموع النِّسوة القادماتِ للتّهنئةِ ببُرودتِها وارتجافها، وحين التقِطتها بالرَّحمةِ والحنانِ يدُها الدّافئة تركتْ لهُما (مريم) مُطلقَ الحُريّةِ كي تناما نومتهُما الأخيرة كطِفلٍ غضّ ناعِمِ الملمسِ، سيكبُرُ بعدها، ويشتدّ عودُه ويخشنُ، وما تعودُ يدٌ تتلمسُها بعدُ حنوًّا عليها؛ بل حاجةً إلى عطائها.

تلتفِتُ بجسدها ناحية أمّها التي مازالتْ تُهدِّئ من روعِها، فترفعُ (مَرْيَمُ) رأسها كهِرَّةٍ وديعة تنظُرُ بعينٍ تأملُ انتشالها ممّا هي فيه، والأمُّ تُجيبُها دمعًا ينهمِرُ على خدّيها في صمتٍ ناطِقٍ بأنها لا تستطيعُ، تنقُلُ العروسُ بصرها فجأةً نحو البابِ المفتوحِ خلفَ أُمِّها وتُمعِنُ فيه النَّظر، إلّا أنّها هذه المرَّة نظرةٌ ثاقِبةٌ كنظرةِ أسدٍ يُرِيدُ الانقضاضَ على فريستهِ، من حينها تستقيمُ واقفةً عن كُرسيِّها وتسحبُ يديها من يدِ أمِّها بسرعةٍ وتمرُقُ من جوارِها كالسّهم وكأنّها في سباقٍ مع الزمن، فترفعُ بأنامِلها فُستانَها كي لا يُعيقها شيءٌ عن الهرب، نحو البابِ تجري مُسرعة، ومنهُ إلى السّاحة، وإلى خارج الدّار في ثوانٍ معدوداتٍ، الجميعُ يتتَبَّعُها بنظراتٍ ذاهلة وأفواهٍ فاغرةٍ، فمنظرُ عروسٍ تهربُ ليلةَ زِفافِها أدْعى للمشاهدةِ من محاولةِ إيقافِهِ، حدثٌ ينْدُرُ حصولهُ في قريتنا وبلادنا كُلّها من أقصاها إلى أقصاها.

(١٦)
«الشَّيطانُ الأعظم»

ابنةُ الحسبِ والنّسب حافيةَ القدمينِ تجوبُ حاراتِ القرية وأزقّتها مُسرِعةً كالبرق بفستانِها الأبيضِ، فَتغبِّرُ قدماها بالتّراب كما الهواءُ من حولها، تشوكُ الأشواك باطن قدمِها فتصرُخُ من الألمِ، ولكنّها ماضيةٌ إلى حيثُ اختارت، إلى أبعدِ نُقطةٍ تستطيعُ اللّحاق بها على وجْه الأرض، أبعد ما يكونُ عن (رائد)، عن أبيها وعمِّها، وعن كلِّ رجُلٍ اختارَ لها حياةً لا تُريدُها لنفسِها، انتقاصًا منها ومن قدرها لأنّها أُنثى.

كلّ الوجوهِ التي تمرُّ أمامَها سواء، ويبقى وجهُ أُمِّها الباكي ملتصِقًا في الوُجدان كما يدُها المُرتعِشةُ- رغم دفئها- الفاقدةُ لكلّ حيلةٍ تستطيعُ بها منعَ زواجها برجلٍ لا تُريدُه ابنتُها؛ يدفعُها إلى الأمام أكثر، هربًا من مصيرٍ كمصير تلك الأُمِّ، وهي التي ظنَّت بأنّها ستكونُ يومًا الآمرَ النّاهي في بيتها المستقبليّ، إذ بها المأمورةُ بلا شكّ، والمُطيعةُ دون رأي، في كلّ وادٍ تنزله، وفي كلّ دارٍ تسكُنُها لا محالة.

تتهلّلُ أساريرُ (مَرْيَمُ) عند رؤيتِها للأرجوحةِ التي مازالتْ معلّقةً تحت تلك الشَّجَرَة الصّامدةِ التي ما جلسَ عليها رَجُلٌ مستبِدّ

يستعذِبُ قهرها بأحمالٍ لا قِبلَ لها بها، فتقذِفُ جسدَها المنهك عليها لتستريحَ من عناءِ الجري، وتبدأُ بها رحلة ممتعة نحو الحُلم، وإلى عمقِ الفضاء، تطوفُ بها مداراتِ الكواكبِ، تلمسُ بأنامها نجومَ السَّماء، فتقطِفُ بعضها لتصنع منها تاجًا تزيّنُ به رأسها، بعضها الآخر تصنعُ به عِقدًا لجيدها الأملس فيُشِعّ نورًا يُنيرُ لها الطّريق، فستانُها الأبيض ينسابُ حريرًا يتطايرُ لحركاتِها فيُضيفُ أنوثةً إلى قوامِها المتناسِق، تختفي أوجاعٌ طالتْ روحَها فترةً ليستْ بالقصيرة لترتَسِمَ البسمةُ أخيرًا على وجهها الجميل، ويمتلِئ قلبها بالرِّضا إلى ما آلت إليهِ أحوالُها.

تصْحو من أحلامِ يقظتِها على أصواتٍ تتسلّلُ إلى أُذنيها فتعلو وتقترب منها رويدًا رويدًا، ليفزعَ قلبها من جديدٍ، وتتبدَّل بسمةُ العشر ثوانٍ إلى ذهولٍ وتشبُّثٍ ظنّتهُ بِحبل الأرجوحةِ؛ إذ به كفُّ أمِّها!

– لم مازلتُ هنا يا أُمِّي؟ ما هذه الأصوات بالخارج؟ دثِّريني.. زمّليني.. أنا أُسحَقُ يا أمّي.

– هذه أصواتُ أهل العريس بصُحبتهم (رائد)، فهم يقتربون من باب منزلنا، لكي يصطحبوكِ إلى دارك الجديدة، يا حبيبتي..

– هذه داري، ولا عِلمَ لي بغيرِها! أرجوكِ أبقِني بين أحضانك اللّيلة فقط!

أُرفق بحال الفتاة وأمِّها، فيرتفِعُ صوتي ويردّد خلفي الحاضراتُ من أهلها والجارات بالزغاريد والأهازيج التي باتت تحكي حال العرائس جيلًا وراء جيل..

«يا ربّي أبوي يحِلِف عليّ اللِّيلة

وأنا العزيزة أنام وسط العيلة

يا ربّي أبوي يحلف عليّ اللِّيلة

وأنا العزيزة أنام وسط إخواتي»

ما أنِ انتهينا حتّى سمعنا صوتَ والد العروس، رافعًا صوتَه من الخارج:

- يا ربّ يا ساتر، العريس وصل

ترتفِع الزَّغاريدُ من جديد، كعادةٍ جرت بالفرح على مرأى عصافيرِ الحُبّ تدخل قفص الزوجيّة، ولكنّهم نسَوا أنْ يخبرونا هل نمثّل الفرح في حالةٍ كهذه كجزءٍ من عاداتنا أم نصمُتُ على الأقلّ حفاظًا على شعورِ عروسٍ بالرّفضِ تستقبلُ شريكها لتعيش معَه مدى الحياة، فنُقرِّرُ إكمال الأفراح لعلمنا المسبق أنَّهُ لا مفرّ منها والتّأقلُمُ حتمًا مصيرُ عروسنا.

ترفعُ سامية صوتَها هذه المرّة، وتطلق أهازيجَ تبيّن صفات العروس ومكانتها..

«آويها يا عروس يا ملِكة

يا لولو في الشّبكة
يسعد البيت إلّي ربّاكي
ويطْرَح لعريسِك البركة»

يدخل العريس ها هنا بلباسنا التقليديّ، تنشرِحُ أساريرُه لرؤيةِ عروسه، يدنو منها بخطًى عجولةٍ فيطبعُ قُبلةً على جبينها، ويرفعُ طرحتها البيضاء عن وجهها ليراها، فتتولّى (سامية) المتصدِّرة للمشهد اليَوْم- في دليلٍ على حُبّها للصّدارة في كلّ شيء- إطلاق الأهازيج والأغنيّات بصوتها المرتفع المجلجل:

«ها هِي وجلجِلي.. بنت الكْرامِ بتنجلي
والسِّيف حدّ جبينها.. والبيت منها بيرهِجي»

نطلِقُ الزّغاريد من أفواهنا في نفسٍ واحد، من ثمَّ يبدأ الأهالي بزفِّها لخارج المنزل، ومنه إلى مكان استقبال الضّيوف، فتكتملَ الفرحةُ بإشهارِ زواجهما أمام الحشود من أهالي القرية، مع التعميمِ بأن يُبلِّغ الحاضر منّا الغائب.

مَرْيَمُ مسلوبةُ الإرادة، تمضي كالمخدّرة فنحتفِلُ بها، ونؤدِّي مراسم الزِّفاف على أكمل وجهٍ، وهي الحاضرةُ الغائبةُ عن كلّ معنًى للسّعادة تطايرَ فوقنا أو رفّتْ له قلوبُ الصّبايا ممّن ينتظِرن دورهُنّ في قطفِ المجدِ زواجًا وإنجابًا.

بعد انتهاء المراسم، أبدلَتْ (مريم) ملابسها في غُرفتها بمساعدةِ

أمّها، والتي بدورها أغلقتْ على العروسينِ بابَ الحُجرةِ، ليُصبِحا فيها وحيدَيْنِ معًا إلّا من أفكارٍ مُسبقةٍ كوَّنها كلّ واحدٍ عن الآخر وعن الزّواج بشكلٍ عام.

مع شقشقات الصّباح الأولى، استعدّتْ (أمّ العبد) لزيارة ابنتها بفطورٍ مناسبٍ لعروسينِ جائعيْن، فالنومُ لم يزرْ جفنها طوالَ اللّيل، وكيف لَهُ أن يفعل وابنتها بالأمس غادرتها في حالةٍ من الذُّهول والخوفِ من المجهول، ورفضِهِ رفضًا تامًّا، وما أنْ قابلتها منفردة في حُجرتها، لفتَ نظرها شحوب وجهها وجحوظ عينيها، فسألتها عن حالها، وكيف مرّت ليلتها الأولى خارجَ منزل أبيها، وما إذا أحسن إليها زوجها وعاملها بلُطفٍ دون صلَف، فكانَ جوابُها بالإيجاب إيماءً بالرّأس دون تفاصيل تُنطَقُ على لِسانها، تُبرِّدُ بها قلبَ الأمِّ على جوهرتها النّفيسة وابنتها الحبيبة (مريم)، تغرقُ الأمُّ في بحرٍ من الصّمت والقلقِ الذي لن يهدأ إلّا إنْ سرَّبت البنتُ لأُمِّها النزرَ اليسير عن ليلتها، لكنّ مريم لا تنوي الإفصاح لأُمّها بأيِّ شَيْءٍ، قليلًا كان أم كثيرًا.

كانت ليلةً حزينة؛ تمرُّ تفاصيلِها أمامَ عينها، ولا تكُفُّ عن الطّوافِ في عقلِها دون توقُّف، تكوّرتْ مَرْيَمُ ليلتَها على الطّرفِ الأيسرِ من السّريرِ، كي تكونَ أبعدَ ما يَكونُ عن البابِ، وعن أيدي رائدٍ، التي قد تُباغِتُها باللّمس في أيّ لحظة، وغطّتْ نفسَها بمفرشِ

السّريرِ المصنوعِ من قماشٍ نُقِشتْ عليهِ رسوماتُ الزّهورِ من كلّ جانب، كانت قد أرسلتْه أُمُّها مع أغراضها كهديّةِ زواجِها، فقد حاكته وطرّزتهُ لها بِيدها. أحكمتْ لفّ نفسِها وتشبّثت بالمفَرَشِ ككنزٍ، فرائحةُ يدِ أمّها مازالتْ تلتصِقُ به، ووحدها أُمُّها التي كانتْ تُشعِرُها بالأمانِ، ولكنّها تخلّتْ عنْها بضعفها، فما عادتْ بعد اليومِ تثِقُ بقدرتها على نجدَتِها وتأمينها، وهي لذلكَ لا تشعُرُ بِفائِدةٍ من سرْدِ تفاصيل ليلتها لها، وهي التي لَمْ تحرِّكَ ساكنًا لأجلِ إنقاذِها من مصيرها هذا ولن تفعل!

يطوفُ صوتُ رائد مـداراتِ عقلها من جديد، فتُصيبُها القشعريرةُ وهي تستذكِرُه وهو ينادي عليها بقُرب السّريرِ، وهي المُلتزِمةُ بمخبئِها تحتَ المفرشِ، فلا تُجِيبُه، يُناديها ثانيًا وثالِثًا فلا تردّ، ولمّا لَم يَجِد أيّ نوعٍ من الاستجابة، أغلقَ المصباح ليُعلِنَ الزّحف إلى موطِنها، وكيفَ أَعلَنَ نبضُها فزعه بضرباتِ طبولٍ صّاخِبةٍ على مسمعِ خشخشاتِ ملابس (رائد) تُخلع عن بدَنِهِ وتُرمى على الأَرْضِ، وإذْ بالمفرشُ يُرفعُ، فتشُدُّه عليها أكثر، ويهتزّ السّريرُ من تحتِها أكثر، تُتمتِم آية الكُرسيِّ والتي كانت تحفظُها عن ظهر قلب، فهي على يقينٍ من أنّها تحفظُ الإنسان من الشّياطين، وما (رائد) في نظرها إلّا الشيطانُ الأعظم، تتحسّرُ على فكرةِ أنّ الوقتَ لم يُسْعِفها لِقراءتِها على نفسها كاملةً على الأقلّ ثلاث مرّاتٍ، فقد انقضَّ عليها

كالوَحش مُحاوِلًا لمسها في كلّ بقعةٍ من جسدها تستطيعُ يدُه الوصولَ إليها، وما أنْ صرَختْ حتّى همسَ في أُذنها عن مقدارِ حُبِّه لها ضمن محاولاتِه البائسة للتّهدئةِ من رَوْعها، فما زادَها منه إلّا نفورًا ومنعةً.

باكيةً تنظُرُ في عينِ أُمِّها وهي تتذكّرُ فِرارَها من بينِ يدي زوجها مترنِّحةً كخروفٍ في لحظاتهِ الأخيرةِ قبل الذَّبح، لِتُدركَ بنظرةٍ سريعةٍ في أرجاءِ حُجرتِها أنْ لا فِرار؛ فبيتُ أبيها ما عاد يسعُها على اتّساعهِ وبيتُ زوجِها يتّسع لها رغمَ ضيقهِ.. تعودُ إلى السّريرِ دونما مُقاوَمةٍ، وتُسلِمُ عينيْها للظّلام، وعلى الرّغمِ من كلّ ما شعرتْ به من استباحةٍ لجسدها الذي اعتادت صَونَه من شهوة النّظرات ولا مجال يُفسح للعارِضِ حتّى من اللَّمسات؛ لَمْ تُحاوِل ولا مرّةٍ فتحهُما. غزالةٌ رشيقةُ القدّ ناعمةُ الملمسِ تقعُ بين يديّ أسدٍ جائع يكادُ يلتَهِمُها، يسيلُ لها لُعابُه فيُغرِقُها به، وتغرِقهُ هي دَمعًا.

(١٧)
«قمعٌ وتمرُّد»

مسجّاةً على سريري، غارقة في الألم منذ يومين أو ثلاثة أو ربّما يزيد، فمنذ ضربني (ماهر) ما عدتُ أشعُرُ بتقلُّبِ الأيام، بزوغِ شمسٍ أو سطوعِ قمرٍ، ليلٍ هاربٍ من أعباء نهار أو نهارٍ يستجدي العمل، في محلّي ساكنة الجسد، أُعِدُّ الرُّوح لانتفاضةٍ طال انتظارُها، تلك الثّكلى تسكُبُ الدّمع كي تغسِل به نتوءاتِ جِراحها علّها تتطهّر من أفعال البشر وتلتئم، أتلمّسُ جسدي وأحمدُ الله أنّ آلامَه باتت تندحِر، وبأنّني هذا المساء أكثر قدرةً على الحركة داخل الغُرفةِ، ممّا يجعلني أكثر تفاؤلًا بما تسيرُ إليه أحوالي في القادم من الأيام.

أدورُ في الغُرفةِ على قدميّ ببطءٍ في ذات الوقت الذي أنصِتُ فيه إلى صوت الموسيقى الذي مازال يرتفعُ بين الحينِ والآخر، متسرّبًا إليّ من النّوافذ والساحةِ احتفالًا بزفافِ (مريم) إلى رائدٍ، فتنتابني الحسرةُ حيثُ لا أملكُ حريَّة الحركة والاستمتاعِ كنسوة القرية وبصُحبتهنّ، أعودُ لآخذ بالجانب الإيجابيّ منه، فوحدي الليلةَ في هذا المنزل الكبير؛ لا يأمُرُني آمر ولا أحتاجُ لإرضاء أحدٍ، أتحركُ بشعري مُسدلًا على الأكتاف وألبسُ ما طابَ لي دون غطاءٍ أو تحفُّظ

كما يحدث وإخوة (ماهر) هُنا. وأنا على حالتي هذه، إذ بالبابِ يُطرق فأُرهِفُ السّمع متّجِهةً إلى السّاحةِ ومنها نحو الباب كي أتأكَّد من أنَّني لستُ مُخطئة ومن أنّها حقّا طرقاتٌ بالباب لا ضربات الطّبول بالخارج فالأفراحُ مازالتْ مُقامةً.

أتساءل يصوتٍ مسموعٍ عن هويّة القادم، فيُجيبُ:

- أمّ (محمد) يا (ضحى)، هلّا فتحتِ لي الباب يا حبيبتي؟

- خالتي أمّ (محمد)!

أنطقها بحماسةِ المُحبّ من خلف الباب، فيتسارعُ خطوي لسماعي صوتها الحنون، ويحملُني الشوق إليها وأنسى أنْ أخفي آثار الضّربِ الظّاهرِ على ذراعيّ بشالٍ، وحتى إنْ فعلتُ فكيف لي أن أمسحَ آثارهُ عن وجهي المختومِ بعلاماتٍ زرقاء!

دلفتْ خالتي من الباب، وحين رفعت رأسها لتنظُر إليّ، فها لها مظهري وأنا على هذه الحال، فارتميتُ في أحضانها مبتسمة، وكأنّني الغريقُ الذي يتمسّكُ بقشّة في محيطٍ هادِر. سألتني وعلامات التّعجُّب تعلو وجهها:

- ما الذي حلّ بك يا ابنتي؟ هل أنت بخير؟

- أنا بأفضل حال يا خالتي؛ لأنِّي رأيتُكِ.

- سألتُ عنكِ السّيّدة أمّ (ماهر)، ولَم تعطني جوابًا شافيًا عن سبب عدم تواجدك في الحفل، فانسحبتُ مبكّرًا من الحفل لأطمئنّ عَلَيْكِ.

- عرف (ماهر) بأمر الأرجوحة يومَ اجتمع رجالُ القرية، فانهال عليّ بالضرب بكلّ ما أوتي من قوّة قبل حتّى أن أُخبره بحملي، ففقدتُ الطّفل من شدّةِ ما فعل.

أتفقّدُ ما ظهر من جسدها باكيةَ العينينِ، وتُتابعُ هي حديثها:

وهاأنذا أُحاول التّأقلم مع وضعي الجديد، رغم أنِّي أكرهه، ولا أستطيعُ تحمُّل النّظر إليه، فهو حتّى لا يَشْعُر بتأنيب الضّمير، وأمّهُ سيّدة لا تخاف الله، فقد كان كلّ همّها كيف نخبِّئ عن الجميع الفاجعة بنسبها لوقعةٍ وقعتُها أو ما شابه!

إذْ بأُمّ (مُحَمَّد) ذاهلة شاردة يأخذها التّفكيرُ بعيدًا، فطالبتُها أنْ تُفصِح عن مكنون قلبها دون حرجٍ، فمن الضّروريّ أنْ أعرفَ ماذا ترى فيه. أجابتني على مضض قائلةً:

- والله يا ابنتي، لا أدري ما أقول، فكيف أواسيكِ في فقدكِ للجنين، وأيُّ الكلماتِ تستطيع التخفيف عَلَيْكِ ضربَ زوجِكِ لك، فكلاهُما أخبارٌ نزلتْ عليّ كَالصّاعقة، ألومُ نفسي على اختلاقِ أوضاعٍ جديدةٍ لا تتناسب مع قريتنا، وعاداتٍ نشأنا عليها فكيف لا أُصابُ بعد هذا كُلّه بالخرس، إذ كيف للجاني أنْ يخيطَ جرحَ المجنيِّ عليهِ وهو مَن بالسِّكينِ غدَر؟

- أيُّ قولٍ هذا الذي تقولين يا خالة!!؟ والله ما كنتِ سببًا إلّا في الخير الوافر العميم.

- كيف هذا؟!! وأنا التي علّقتُ هذه الأُرجوحة التي اهتزّت لها القرية كيْ تُعمِلَ القهرَ فينا، علَّقتُها وهي الجامدةُ التي لا تنفعُ نفسَها أو تضُرّ؛ فقلَبَتْ أحوالَ النِّساء وكشَفتْ وجهًا ما عرفناهُ من أزواجنا.

- غيّرتنا للأفضل يا خالة، غيَّرتنا إلى الحدِّ الذي لا نودُّ العودةَ به إلى الوراءِ وسكونٍ اعتدناهُ!

- إذْ بي حفرتُ حُفرةً يا (ضُحَى)، ردمتُ الكلّ فيها وليس لنا منها من مخرج! الموتُ يُطاردُنا، وهو الآنَ يُمسِكُ برقبتنا جميعًا، فهل يستطيبُ بغير وقفِ أنفاسنا؟

أُهدِّئُ من روعِها وأُحاول الابتسام:

- يا خالة لا تحزني! فطفلي الذي قضى حتفَه؛ قد قضاهُ بسبب قسوة أبيه لا بسببك، صحيحٌ بأنّه طالني من فقْده آلامٌ وأوجاعٌ في الجسد والرُّوح، ولكنّهُ قدرُ الله الذي يمضي فينا ليختبرَنا إِنْ كنّا سنصبر أم لا، وَإِنِّي والله على قدر فجيعتي الصّابرةُ المُحتسبة، فما كان لـ (ماهرٍ) أن يكون أبًا صَالِحًا لأولادي فأخّرهم الله عنه وعنّي مِنْهُ، وما غضبتهُ وضربُه لي إلّا سببٌ في قادمٍ أجمل سيطأُ أرضي، أراهُ أمام عيني وبقي أن تصل إليهِ قدمي يا خالة، لهذا أقولُ لكِ ثانيةً، لا تحزني عليّ؛ فأنا بأحسن حال وأقوى من أيِّ حالٍ كنتُ عليهِ يومًا.

- بارك الله فيك يا ابنتي وثبّت قلبك.

قالتها وضمّتْ رأسي لتنام على صدرها، وربّتت عليّ بيدها متمتمةً آيات الحفظ والسكينة، فترتاح لهدهداتِها آلامُ نفسي وتطمئنّ، بعدها أرفعُه عن صدرِها وأنظُرُ عميقًا من خلفِ ستائر الدّمعِ في عينيّ داخل عينيها الدّامعة لأقول لها مؤكّدة:

- سيكونُ لك الفضلُ في تغيير مجرى حياتي إلى الأبد، وأنا اليَوْم أكثر امتنانًا وأكثر حبًّا لك من ذي قبل، فتذكّريني بالحُبّ كما سأفعل؛ إنْ غيّبني القدر مرّةً جديدة فأبعدَني عن قُربك ووصلِك يا خالتي الحبيبة.

-حديثك يُخيفُني عَلَيْكِ أكثر، ولا يرتاحُ له قلبي، ما الذي تنوين فعلهُ؟ أخبريني؟

- لا شيء، مجرّد كلمات لا تعني اليَوْم شيئًا، ولكنّي أردتُ قولَها فقد يَكُونُ لها وقعٌ جميلٌ في نفسِكِ مُستقبلًا.

- لن يقعَ في نفسي منكِ إلّا كُلّ جميل، اطمئنّي ولكنْ لا تجرِّبي البُعد عنِّي فلستُ أُطيقهُ أبدًا.

- سأقومُ لإعداد الشاي كي نتسامر قليلًا.

- لا يا حبيبتي، لا بُدّ أن أرحل قبل أن يأتي الجميعُ وينكشف أمري، ويشكُّ أهلُ الـدَّار أنّكِ أخبرتني بالسرِّ الذي سيقضُّ مضجعُهم إنْ كُشِف وقد ينالُك إثمُه ولكمات جديدة، ولستُ بحاجةٍ إلى أن أشعر بالقهر عَلَيْكِ أكثر ممّا أشعر به اليوم، أترُكُكِ في أمان الله وحفظه.

- لا تنسيني من دعائكِ خالتي، في أمان الله وحفظه.

تخرج خالتي من البابِ بعد توديعي لها، فأدفعُهُ بجسدي الواهنُ لأُغلقهُ من خلفها، فيُدفعُ من الخارِجِ بقوةٍ لأرتطِم في السُّورِ من خلفي، لا أكادُ أستوعِبُ ما حدث، حتّى أرى (ماهر) أمام عيني رافعًا صوته غاضبًا من استقبالي للخالة أمّ (محمّد) ومِن أنّني خارج غرفتي التي أمرني بعدم مبارحتها حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

- لمَ أنت هنا!! ألم آمركِ بعدم ترك حجرتك؟

- نعم، ولكنّي خرجتُ لأجيب الطّارق إذْ به خالتي أمّ (محمد)، ولَم أَجِد حرجًا في استقبالها فهي جاءت خصيصًا لتطمئنّ عليّ.

إذْ به يشُدّني من شعري، فتتقطّعُ بين أصابعِهِ خُصلاتٌ مِنْهُ وهو يقرِّبُ أذني من فمه هامسًا بغيظٍ شديدٍ:

- فأخبرتِها بأنّ زوجكِ الشّرير ضربكِ، وأفقدك جنينًا طال انتظاره، أليس كذلك؟! انطقي ولا تكذبي فأنا أعرفك جيّدًا حين تكذبين!

- لا، لم أخبرها بشيءٍ، دعني وشأني، فلن أسمح لك بلمْسي بعد اليَوْم.. ارفع يدك عنّي.

أقولها وأهربُ إلى حُجرتي باكية وأُغلقِ الباب جيدًا كي لا يفتحه وليبت خارِجها وليكن ما يكن! فلا أمان لي معه بعد اليَوْم، يتبعني ويطرق الباب طالبًا فتحَه، وأرفض بأعلى صوتي:

- لا سقف سيجمعني بك، ولا باب سيُغلقُ علينا وحيديْن من الآن،

وإلى أن تقوم الساعة أو يحين أجلي أو ربّما أجلُك، ولعلّهُ يَكُونُ قريبًا!

- سأتزوّج عليكِ، فقد أخذتُ قرارًا بهذا هذه اللّيلة، وسأخبرُ به أمّي لتجد لي عروسًا مناسبةً، ترعى شئوني وتنجِبُ لي أولادًا من صُلبي، فأرضُك بورٌ لا رجاء فيها، وسأجعلُكِ خادمةً لعروسي وأولادي منها وسترين، قريبًا جدًّا ستندمين على أفعالك هذه كلّها.. سترين.. قسمًا بالله ستندمين.

- أرجوك لا تفعل، لأني سأُشفق على أيّ امرأةٍ تَكُونُ لك زوجًا.

- ستكونين خادمتها، ألا تسمعين؟! أم أنّه أصابك الطّرش.

- لن أكون إلّا سيّدة قصرٍ، وبما أنّه يُعجزك أن تفعل ذلك؛ فطلّقني لترى كيف أكونُها بعيدًا عنك.

- لن ألقي عليكِ يمينَ الطّلاق، سأذلّك فلا مكان لك على وجْه هذه الأرض تذهبين إليه، ولا أهل لكِ سواي.

- سيُغنيني الله عنك بفضله وكرمه.

يسكت صوتُ ماهر فجأة، فأُرخِ السّمع ترقُّبًا بتقريب أذني من فتحاتٍ بالباب، فيتناهى إليها صوتُ هرجٍ ومرجٍ، وصوت أمّ (ماهر) وهي تضحك بصوتٍ مرتفع يشاركها فيه جميعُ أهل الدّار الذين كما يبدو عادوا من حفلة الزِّفاف، تهاوى جسدي المتهالِك خائر القوى على الأرض في حالةِ هُدنة، أُسندُ ظهري على الباب وساقاي ممدّدتان أمامي، أنظُرُ إليها.. وأفكّر فيما قلتهُ لماهر وأتعجّبُ

من نفسي؛ إذ كيف لي بتحقيقه؟! فلا مكان يؤويني إنْ خرجتُ من هنا، أبكي بحُرقةِ الواهن فاقد الحيلة، وأضربُ بكفيّ فخذاي بكلّ ما أُوتِيتُ من عزم وقوّة مرَّة تلو الأُخرى، ماذا أفعل بعد هذا الذي حصل؟ أبي؛ فقد توفاهُ الله ولا أحد لي في هذه القرية.. وإن كان لي من أحدٍ فلن أعرِّضهم لاشتباكٍ لا طائلَ منه، لا حلّ لي سوى الرَّحيل من هنا دون إخبار أحد، لكي لا يتعرّضوا للأذى بسببي، ليلٌ بهيمٌ واحدٌ وينقضي كلّ شيء له علاقةٌ بك يا ماهر، ينقضي كلّ شَيْءٍ معك إلى الأبد.

(١٨)
«الرّحيلُ المُفاجئ»

خمسةُ أعوامٍ تمُرّ أمامي بحُلْوِها ومُرِّها في لحظاتِ تجميعي لبعضِ حاجيّاتي ممّا خفَّ وزنهُ وسهُلَ حملُه في حقيبةِ سفرٍ صغيرة، ما كان ليثقلَ عليّ حملُها لوْلا مخاوفي التي حَشوتُها بين مقتنياتي فيها وبعض ملابسي التي أخذت. ثقيلةٌ هي حقائبُ السّفر التي لا وُجهةَ لأصحابها، ولا أيادٍ متوقّعة تتلقّفُهم في لحظاتِ ضياعِهم لتغمُرهم بالأحضان والدِّفء، كما وأنّهُ لا أماكِنَ معهم تضيق لتخنِقَ الأنفاس، ولا ينالُ بعضُ زواياها زوابعُ وأعاصيرُ تقتلِعُ ما زرعتْ من حلو النّباتاتِ وجميل الزُّهور، أتُراني أفعلُ الصّواب حين أترُك حياتي البائسة هذه لأرتمي في أحضان المجهول؟ لا شيء يميّزني لأجد مَن يتبنّاني، ويأخذ بيدي إلى سبيلِ رزقٍ أُعيلُ به نفسي فأشُدّ به عودي، وأستطيع به الاعتماد عليهِ عزيزة نفْسٍ.

أعودُ لتنحِيةِ أفكار الهزيمة هذه عنّي، فمازال الحديد الصَّلبُ يتشكّل بين أيدينا كالعجينِ اللَّيّنِ تحت تأثير حرارةِ المواقد وألسنةِ اللّهب لا غير، وهاأنذا في قلبِ المواقِدِ أنتظِرُ لروحي تشكيلًا يناسبُها ويناسبُ وقوفي إلى جوارها كصنديدٍ يهوى الانتصارَ فحسب، يدفعُ بجيوشهِ كُلّها كي يحظى بلحظةٍ كهذه؛ تعني له الدُّنيا وما فيها.

جاهزةٌ أنا الآن للمواجهة، ألبسُ التّحدي درعًا واقيًا، وأنطلِقُ خارجَ الغرفةِ التي ما غادرتها منذ ليلةِ أمسٍ، ممّا اضطرّ ماهر للمبيت خارجها لأوّل مرّةٍ منذ زواجنا، في الصّباح دائمًا ما تعُجُّ ساحةُ المنزل بالأفراد، فهُم يتناولون طعام الإفطار سَوِيًّا، وتلك فرصتي المواتية كي أطلب الرَّحيل والطلاق البائن أمام الجميع، ربّما تواجد أطفال العائلة في أنحاء السّاحةِ سيكون سببًا في تخفيفِ ردّات الفعل وقسوتها، وبالتالي حصولي على هدفي المُستحدث بليلٍ لم يطْلع نهارُهُ بعد.

عيني شاخصة تبحثُ بين وجوه الجميع على وجه (ماهر)، ها هو ذَا يراقبني بنظرةِ اشمئزازٍ بادلتُه واحدةً من مثلها، فسألتْ (أمّ ماهر):

- إلى أين تذهبين يا ضحى، تبدين مستعدّة لسفرٍ طويل ولا أذكُرُ أنّنا ننتوي واحدًا؟

- سأغادر وحدي يا خالة، بعد أنْ يطلِّقني ماهر، ويحلّني من أيّ قيدٍ لي به.

- ما هذا الذي تقولين!!؟ لا نساء لدينا تطلبُ الطّلاق والفِراق من أزواجهنّ، اذهبي إلى حُجرتك واهدئي فلا شيء يستدعي كلّ هذا الذي تفعلين.

- مَن قال إنَّهُ لا يستدعي؟! أراهُ يستدعي، ولا قبل لي بالبقاء بعد اليَوْم مع ولدك، هو يريد الزّواج بأخرى فحقّقي له رغبته،

واعتبري رحيلي من هنا بانفصالي عنه خطوةً في سبيل إسعاده وراحة باله! أليس ذلك أغلى أمانيكِ؟

توجِّهُ الأمّ كلامَها لولدها أمام الجميع وتحِثُّهُ على الحديث:

- ماهر، انطق بِشَيْءٍ؟ ماذا دهاك!!

- هي لا تستحقّ منّي أكثر من نظرة تحقير كي تعود إلى غرفتها ذليلة.

- لن أذهب يا ماهر، كنْ رجلًا لأوّل مرّة في حياتك معي، وأطلق سراحي بالمعروف.

تصرخ أمُّهُ في وجهي:

- رجل، وسيّدُ شباب القرية، قطعَ الله لِسانكِ! كيف لك أن تتجرّئي عليه أمامنا إلى هذا الحد؟!

- فليطلِّقني إذًا، لن أعيش معه بعد اليَوْم.

يهبُّ ماهِر من محلِّه منتويًا ضربي من جديد، إلّا أنّ أخاه (حامدًا) منعه من لمسي بإبعادهِ عنّي واحتضانِه بقوّةٍ، فأطلق لسانَه بالسُّباب والوعيد، وأسمعني الكلمةَ التي أردتُ ثلاثَ مرّاتٍ وطردني من المنزل، أعطيتُهم جميعًا ظهري، وخطوتُ خطواتٍ ثابتةً نحو الباب، مُرتميةً بنجاحٍ تامّ في أحضان المجهول.

سِرتُ فما تبعني مِن أحدٍ، حتّى أتيتُ خلف الدّار فباغتتني زوجةُ (حامد) أخو ماهر هامسة لي وهي تحملُ صُرّةً في يدها تدفعها إليّ:

- خذي صرَّة المال هذه يا ضُحَى، كنت قد جمعتُها وخبّأتها

عندي لوقتِ الحاجة، خذيها؛ فبالتأكيد ستحتاجينها في أوّل الطريق، حفظك الله يا ضحى ويسّر أمرك.

- لا أعرف كيف أشكرك على هذه اللّفتة الجميلة، بارك الله لك في زوجك وأولادك، وأقرّ بهم جميعًا عيونك.

اغرورِقت أعيننا بالدّموع، وتباعدنا دون وداعٍ، أكملتُ دربي خارجةً إلى حدود القرية، البيوتُ تتباعد وتصغُرُ من خلفي، أمُرُّ على التّلال المتناثرة واحدةً تلو الأخرى، فتُعيدُني إلى ذكرياتٍ جمعتني بنسوةِ القرية، وضحكاتٍ تشاركناها سَوِيًّا، الأرجوحة واندحارُ خوفي عندها بعد بلوغ طبقات السَّماء العليا عليها، ضربي وفقدُ طفلي مازالا وقودَ استمراري في الرَّحيل، وفيما قررتُ فعلهُ دون رجعة. وأنا على هذه الحال، إذْ بزهرة الصّغيرة تحملُ جرّتها وتركُض مع صويحباتها أمامي، فتصرُخُ بأعلى صوتِها:

- سنجلِبُ الماء لَلجميع من النّبع يا خالتي ضحى، لقد كبرنا وأصبحنا مثلكُنّ!

أتابِعُها مُحاوِلةً الابتسام، فالسّعادةُ تحمِلُها على بساط الرِّيح، ولا تكادُ ترى حولها إلّا ألوان قوسِ قُزحٍ بأفراحٍ تبُثُّها في نفسها فحسب، ها هُنّ بناتُ قريتنا يمضينَ خلفها على خطٍّ واحدٍ كان قد رُسِمَ لنا قبلًا وتتبّعناهُ كما يجب؛ يستلمنَ الرّاية منّا كنواةٍ لجيلٍ جديدٍ قادمٍ وعصرٍ جديدٍ من الاستعبادِ والقهر، إلّا من رَحِم ربّي منهُنّ! اللّهم ارحم نساءَ قريةٍ ما طالبنَ إلّا بالقليل ليفضْنَ على الجميع بالكثير من الحُبّ وعطاياهُ الدّافقة.

(١٩)
«ضحى الجديدة»

مكتبٌ خشبيّ صغير وفاخر أجلِسُ خلفَه بكُلِّ عزّةٍ وكرامة، أعيدُ تعديل نظارتي على وجهي الباسم رضًا وسعادة وأنا أدورُ بنظري متأمِّلةً أرجاءَ المكان، المكانُ واسع تشغلُهُ طاولاتٌ كثيرة، على كلّ وَاحِدَةٍ منها آلةُ خياطة وقماشٌ متعدّد الألوان والأشكال، ومجموعةٌ ضخمةٌ من الخيوطِ على اختلافِ ألوانها وأنواعها، إبرٌ بأحجامٍ مختلفة، وجميع أدوات التّطريز، سيّداتٌ وبناتٌ من مختلفِ الأعمار يعملنَ جاهداتٍ على تطْريزِ أثوابٍ مختلفةِ الهيئة، على حسب المناطق التي ينتمي إليها الزّيّ المحاك وطلبِ الزبوناتِ وأذواقهنَّ.

أرفعُ سمّاعة الهاتف، وأطلب السّكرتيرة هويدا، وتجيبُني بحماسةٍ:

– مرحبًا مدام ضحى.

– مرحبًا هويدا، هلّا اتّصلتِ بالمنزل، أريدُ أن أخبرهُم أمرًا ضروريّا؟

– لحظة سيّدتي، ابقَي على الخط.. (منتصر) على الطرّف الآخر من الهاتف، تفضّلي.

– حسنًا، شكرًا لك.

أسمعُ صوتهُ المتغيّر المُخشوشنْ منذُ فترةٍ بفعل سنّ المراهقة وهرموناتِها، فأبدأُ حديثي معهُ مبتسمة:

- ألو منتصر، كيف حالك بنيّ؟

- بخير ماما، في انتظارك من أجل تناول طعام الغداء.

- لا يا بنيّ، لا تنتظِرني سأتأخّر اليَوْم؛ لدي مشوارٌ ضروريّ، يتوجّبُ عليّ القيامُ به.

- حسنًا، سننتظر عودتك بالسلامة.

- حسنًا، بلّغ والدك بهذا، ولا تنسوا أنْ تضعوا نصيبي من الغداء جانبًا، فربّما أعودُ جائعة.

- سأفعل. أمّي، هل تذهبين مع عمّ فرج السّائق؟

- نعم يا بنيّ، سأذهبُ إلى قريةٍ مجاورةٍ لنا، أقضي حاجةً هناك وأعود بأسرع وقت ممكن، لا تقلقوا إن تأخّرت. أحبّك بني، في أمان الله وحفظه.

- أحبّك أمّي، مع السلامة.

أُغلِقُ سمَّاعةَ الهاتف، وأبدأ جولةً سريعةً أطمئِنُّ بها على العمل والعاملات في المؤسّسة التي أقوم على شئونها بشكل كامل، العاملاتُ هنا يجدْنَ أعمالَ الخياطة والتطريز، مضطرّاتٍ للعمل سعيًا للرزق ويتعلّمن كيفيّة البدء بمشروعٍ صغيرٍ في متناول أيديهنّ ليصمُدنَ أمام عواصف الحياة المفاجِئة، في ركنٍ فارغٍ هناك علّقتُ

أُرجوحة لكُلّ عابرة في روحِها متّسعٌ للحياة وللأمل، فتشحذُ من خِلالِها هِمّةً، وتسمحُ لأنفاسٍ عليلةً أنْ تتسرّبَ إلى رئتيها وهي تعتليها، فتنطَبِعُ على وجهها نضارة ورديّة تسرقها من عينِ طفولةٍ تستعيدُ بعضَها للحظاتٍ، وقد جعلتُ لهنّ وقتًا مستقطعًا تختارُ كلّ وَاحِدَةٍ منهُنّ تثبيتهُ بين ساعات العمل المُحدّدة لهنّ رسميًا.

بلباسي الرّسميِّ الدَّاكنِ وحِجابٍ يتناسبُ وبشرتي، ويُبرِزُ لونَ عيني الخضراء، أسيرُ نحو وُجهتي المعلومةِ هذه المرَّة، أبدو كسيِّدةِ أعمالٍ ثريّة فخطْويَ الثّابتُ في الأعوام الماضية أضاف الكثير إلى ثقتي بنفسي، وطالتْ به الصّلابةُ جذعي الغضّ.

أودِّعُ الجميع باكرًا، وأطلِقُ لقدميّ العنان كي تسيرَ بلهفةٍ إلى مبتغاها، أحملُ حقيبتي اليدويَّةَ الصُّنعِ والتّطريزِ تشجيعًا لأعمالٍ تبنّتها المؤسّسةُ، فبتمحيصِ العينينِ صُنِعت، وبالحُبّ خيطتْ وطُرِّزت، ومن عبق التّاريخِ امتصّتْ عبيرها لتظهر بمظهرِ التُّحفةِ الفنّيةِ النادرةِ وهي المُعلَّقةُ على أكتافِ الأمل؛ أكتافِ ضحًى جديدة ترنو لفرحةِ النّصر.

أركبُ السّيارةَ وأُحيّي السّائق، وأشرحُ له العنوان، فيستجيب لي دون ثرثرة، أخلعُ نظارة القراءة وألبسُ نظّارة الشمسِ كي تُخْفِي عنه شرودَ نظراتي ووقوعي بين قبضتيّ ماضٍ آثم وحاضرٍ كالشّمس بازغ ساطع. مازلتُ أذكُرُ ليالٍ وأسابيعَ وشهورًا قضيتُها بكاءً

وعوزًا قبل أن تتلقّفني يدُ الرأفةِ والرّحمة على شكل ملاكٍ يمشي على قدمينِ، سيِّدة رعتني وضمّتني إلى أُسرتها العاملة كفردٍ فاعلٍ فيها، تُعلِّمهُ وتنصحهُ وتمدُّ له يدَ المساعدةِ إن احتاجها، فكانتْ أُمًّا رؤومًا وصدرًا حانيًا لا مثيل له.

ولمّا لمست منّي المثابرةَ والتّميُّز وحُسنَ الخُلُق؛ زوّجتني أغلى البشر على قلبِها؛ ولدها الوحيد. قبلتُ به على مضض خوفًا من تجربةِ زواج فاشلة جديدة؛ إذْ به من أكثر الرِّجَال الذين قابلتُهم تفهُّمًا وإدراكًا لحقوق المرأة وحُسن التّعامل معها كزوجة وأمٍّ لأولاده. تُوُفِّيتْ بعد زمنٍ من المرض، بعد أن قرّت عينُها بإنجابنا لمنتصرٍ وإخوته الثلاثة، تركتْ مؤسّستها النِّسائية تحت تصرُّفي وإدارتي؛ فما اعتادت أن تثقَ بأحدٍ فيها مثلي، كي تُضاف إلى ذاكرتي كخليفةِ حاتمٍ الطّائي في كرمهِ وجميل صُنعهِ.

(٢٠)
«حِبالُ الأمل»

عجلاتُ السّياراتِ لا تكُفُّ عن الدّوران أعلى الطّريق الذي أسُلكُهُ نحو قرية (أبي زيد)، أتابِعُها بنظري شاردةَ الذِّهنِ وهي تأخذُ دورةً تِلوَ الأخرى، تدُكُّ بها جسَدَ الشّارع بإصرارٍ وعزيمةٍ متناهية، ما خلت الطّريقُ كذلك من العرباتِ تجُرُّها الحمير؛ التي تعوّدنا استخدامها كوسيلةٍ أساسيّةٍ لنقلِ حاجيّاتنا في الزّمنِ الغابر، يسيرون جميعًا جنبًا إلى جنبٍ إلى جوارِ سيارتي الحديثة التي اشتريتُها بسبب حاجتي للتنقُّلِ إلى أطراف المدينةِ من وقتٍ لآخر، وعيّنتُ عليها سائقًا يقودها لأقضي بها مشاويري الخاصّة، حين هلّتْ تلالُها وأشجارُها وأسقفُ بيوتها من بعيدٍ، سَرَتْ في جسدي تيّاراتٌ دافئة على امتدادِ شعيراتِ دمي الدّقيقةِ كُلِّها، عمّت دواخلي حرارةٌ أبتْ إلّا أنْ تتكاثر آثارُها في النّفس كدمعٍ في مُقل العين، انساب بعضُه هاربًا من تحت نظّارة الشمس لأتلقّفه بأناملي مُخفيةً آثارها قبل أن يلحظها السّائقُ أو تقع على الظرف فتُفسدهُ، ولكنّ حركتي وارتباكي ما كانا ليخفيَا على أحدٍ يُشاركني التّنفُّس في مكانٍ ضيّقٍ كسيّارة، ممّا لفت انتباه عمّ فرج، لينظُر برأسِهِ للخلفِ محاولًا معرِفةَ ما يجري معي،

فأشحتُ بوجهي لأهربَ من عينيهِ بإطلالة خارج النّافذة وتابعتُ تجفيفَ الخدّ الذي بلّلهُ دمعي.

يعلو شيئًا فشيئًا صوتُ فريد الأطرش مُغنّيًا في الرّاديو أغنيتي المُفضّلة، (حبِّينا حبِّينا.. حبّيناكِ حبِّينا، لو ما حبَّينا عيونِك ما اتعذّبنا ولا جينا)، كأنّ السّائق يُحاولُ التآمر على ذكرياتي فيهزِمها بأغنية أسعدُ بها، كم هي صادِقة هذه الكلمات، لطالما أحببتُها.. ولكنّها تصفُ حالي الْيَوْم أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

حالما قرُبت البيوت، وبدأت تضيقُ الشوارعُ إليها، وأصبح مرور السّيّارات شيئًا ليس بالهيِّن، أمرتُ عمّ فرج بإيقافِ السّيارة، وطلبتُ منه الانتظار ريثما أعود، فانصاعَ لما أمرتُه على مضض، رفعتُ عن عيني نظّارة الشّمس وتفقدتُ وجهي في مرآةِ جَيبٍ أحملُها لأتأكّد من أنّ الدّمع لم يُخلِّف بصمتهُ عليه، ترجّلتُ من السّيارةِ، نصبْتُ ظهري وفردتُ كتفيّ، الظّرفُ الورقيّ في يدي اليُمنى وحقيبتي على كتفي اليسرى، وانحدرتُ مع التّلةِ نزولًا نحو البيوت التي عِشتُ في كنفها عمرًا بأكملِه.

«للانتصارِ بهجةٌ في النَّفْس؛ يزدادُ ألقُها ولمعانُها أكثر حين نراها في عينِ مَن رأى هزيمتنا رؤيا العين ولَمَ يُحرِّك ساكِنًا للوقوفِ إلى جوارنا، وإنْ كانت ببساطةِ انحناءةِ رأس ونفسٍ تتضرَّعُ إلى الله من أجلنا بطلبِ الفرج، ويكتملُ بمعناه الحقّ في نفوسنا؛ ساعةَ تشاركنا

إيّاهُ نفوسُ أحبَّتنا طوعًا لأنّها لمَسَت كلّ معنًى جميلٍ بداخلنا، بعيدًا عن المصالح وأنانيّةِ الذات». هكذا حدّثتُ نفسي مرورًا بشوارِعِ القريةِ، فيخفِقُ القلبُ شوقًا للقاءِ خالتي (أمّ محمد) والأخريات كُلَّمَا لاحتْ بالقُربِ البيوتُ التي تسامرتُ معهنّ فيها، وفِي الأزقّةِ التي ما كانت لتنتهي أحاديثُنا على عتباتِ بيوتِنا المُطِلَّةً عليها، فيختلِط بنبضِ الشوقِ نبضاتُ قلقٍ من رؤيةِ مَن آذوني شرّ أذيّةٍ، وأذاقوني وابِلًا من الأسى لبعضِ الوقت.

أطرقُ باب منزلٍ واحِدٍ لطالما حلُمتُ أنْ أطرقهُ في فترة غيابي عن القرية؛ لأرتميَ بين أحضانِ سيِّدةٍ تسكُنُه، ثائرتُنا الأولى وصانعةُ التغيير الأهمّ في دمي (أمّ محمد)، إذ بصوتٍ يردُّ على طرقي المتتابع العجول:

– مَن بالباب؟ انتَظِر لحظة، أتظنُّ بأنّني شابّةٌ في الثلاثين؛ فأهتزّ جريًا لأفتح لك الباب في ثوانٍ! ها أنا قادمة..

أضحكُ لسماعِ صوتِها الجميل وكلماتها المُشاكسة، تلك الرّوحُ المحبّبة إلى قلبي، حمدًا لله أنها مازالت على قيد الحياة، وحمدًا لله أخرى أنّني هنا أمام منزلِها اليَوْم كي أسعدَ بمرآها. تفتحُ الباب على هونٍ، فيصُمّ صريرُه أذني، وإذ بها تطُلُّ من خلفهِ معقدةَ الجبين، ولكنَّ وجهها الوضّاء مازال يمنحُ الطمأنينة والسّلام، تُحاوِلُ استبياني بعينيها من خلف نظّارةِ قراءةٍ بإطارٍ أسود فتبدوانِ أكبر من عهدي

بهما، تُبرِزُ عينيها وخطوطًا رفيعةً من التّجاعيدِ جدَّت حولَهُما عن آخر وقت رأيتُها فيه، أبتسِمُ ابتسامة غير المُصدِّق، وأمهّدُ لها خبر عودتي بإسماعِها صوتي أوّلًا.. وهي تتفحّصُني من رأسي حتى أخمص قدميّ.

- اَلسَّلامُ عليكم خالتي أمّ محمد، كيف حالك؟

- مَن؟ أعرف هذا الصّوت جيِّدًا!

- انظري إلى عيوني، ستعرفينني.

تتأمّلُ وجهي وتتفحّصُ عينيّ، وتصرُخُ بفرح:

- ضحى ابنتي، ضحى حبيبتي، تعالي في أحضاني يا جميلتي! لا أصدِّق عيني والله.

- هِيَ يا خالتي، اشتقتُ إليكِ كثيرًا، والله وحدهُ يعلم حجم الاشتياقِ الذي يجتاحُ قلبي.

تقول متحسّسةً ملابسي متفحِّصةً إيّاها، وعلاماتُ التّعجُّب تعلو وجهها، فتسألني:

- تبدين كسيِّداتِ الأعمالِ اللاتي يخرُجن علينا متأنِّقات على شاشات التِّلفاز، وتبدين لي بصحَّة جيدة حبيبتي.

أبتسِمُ حياءً، ولا أجدُ جوابًا فأصمتُ وهي تدعوني للولوجِ إلى السّاحة وترافقني إلى الصّالةِ، من ثمَّ تدعوني للجلوس إلى جوارِها، وتطلبُ دون صبرٍ معرِفةَ أحوالي وما غيّرتْ فيّ الأيّام لأبدو ترِفةً إلى هذا الحدّ.

– أنا بأحسن حال كما ترين، تزوّجتُ وأنجبتُ أولادًا رائعين من أبٍ رائع، ولي عملٌ في مؤسسة أرعى شئونها، ولديّ موظّفاتٌ يعملن بِجدّ لإنتاج أثواب تراثيّة جميلة كالتي اعتدنا تطريزها وحياكتها هُنا في القرية. ماذا عنك والنّسوة، أخبريني يا خالة عنكُنّ، والأرجوحة ما الذي حدث لها بعد رحيلي؟

– الحمدُ لله، لقد اطمأننتُ عليك الآن يا ضحى، كم بتُّ اللّيالي أرثي حالك ساهرةً على أنفاسِ شخيرِ زوجي، ليُضيفَ تأثيرًا صوتيًّا مزعِجًا إلى قلقي!

تضحكُ وأُشاركُها الضّحِك كما اعتدنا في نَفَسٍ واحد، وتُكملُ:

– لا، لن أُخبِركِ عن حالِهِنّ، سأدعوهُنّ إلى هنا كي يرَوكِ وترينهم، فيُخبروكِ بحالهم وتُخبرينهُم، وأكون شاهدةً عليكُنّ فرِحاتٍ بلمِّ شملِكُنَّ من جديد.

– كيف لي هذا، وأنا باقية لوقت قصيرٍ فقط!!

– خِلال دقائق سيكون الجميعُ هنا، ناوليني الهاتفَ الموضوعِ بجانبكِ على الطّاولة يا حبيبتي.

– تفضّلي يا خالتي، لا تنسي الاتّصال بزوجة حامد، فإنّ لها دينًا في رقبتي أريدُ سداده.

– سأتّصلُ بسامية وستتولّى هي الباقي! أما زلتِ تذكرينها..

– ومَن ينسى سامية!

نبتسمُ وعيونُنا فضّاحة، تحكي حكايةَ شوقٍ لأيّامٍ خلت لن تعود يومًا بذات الزّخم الذي عشناهُ فيها، ولكن سينالُنا بعضٌ من شذاها باجتماعنا مجدّدًا على أيِّ حال. ترفعُ سمّاعةَ الهاتِف، وتضرب الرّقم فيُجيبُها الطرفُ الآخر بعد تأخير، فتردُّ عليه:

– مساء النور حبيبتي، بدون أيّةِ مقدِّمات عندي لكِ مفاجأة، أبلغي سلمى وأمّ فايز وزوجة (حامد) وأمّ العبد وابنتها مريم بالحضور إلى منزلي في غضونِ نصف ساعة، ويستحسن قبل ذلك، وليستبشرنَ خيرًا؛ فلديّ ضيفةٌ عزيزة سيسعدن برؤيتها والجلوس معها. هيّا بسرعة في انتظارِكُنّ.

أغلقت الهاتِف، ونهضتْ تحضّر الشّاي، إذ بجرس الهاتفِ يرنّ، فتعودُ أمّ محمد على عجلةٍ من أمرها محاولةً اللِّحاق به قبل أن يتوقّف، ترفعُ السّماعة وتجيب:

– ألو، أهلًا سامية لا عليكِ في انتظاركنّ.

أغلقتْ على إثرها السّماعة، وقالت موجِّهةً كلامها إليّ:

– بعضُهنّ لن يستطعن الحضور الآن، فلتلتقِ ببعضِهِنّ اليَوْم، ولعلّ لنا موعِدٌ قريبٌ نجتمِعُ فيه جميعًا ونسعد بقدومك إلينا فيه.

لم ننتظر طويلًا حتّى دقّ جرسُ الباب، فقمتُ أُجيبُهُ لكي أوفّر على (أمّ محمد)عناء المشي السّريع، وإذ بها سامية وسلمى تقِفُ إلى جوارِها على قدميها في منظرٍ اقشعرّ له بدني تأثُّرًا، ما كان منهما إلّا أن تفحّصتاني وصرختا بصوتٍ واحدٍ:

- ضُحَى، وأخيرًا أتيتِ!

نرتمي في أحضانِ بَعضِنَا الآخر، تحملُ كلّ واحدةٍ منا مشاعر تُعْجِزها عن البوح إلّا دمعًا.

- سلمى! ما أجملكِ وما أبهاكِ، وأنت كذلك يا سامية، مازلتِ صبيّة.

- بل أنتِ الصّبية الجميلةُ والأنيقة، أخبريني أَكُلّ مَن تترك زوجًا أتعَبها تُصبِحُ جميلةً هكذا؟

قالتها سامية ووضعتْ كفّها على فمِها خجِلًا ممّا رماهُ لِسانُها من كلمات مثقلةٍ بالمعاني الموجِعة، فضحِكتُ لقولها وأجبتُها باسمةً:

- بل قولي: «كلّ مَن وجدت ذاتها بعد ضياع!

تسيرُ سلمى إلى جوار سامية حتّى تجلِسُ كُلُّ واحدة في محلّها، فتأتي أمّ محمد حاملةً صينيةً فيها أكوابُ الشّاي، تحملها عنها سامية سريعًا؛ كي لا تُثقل عليها بحَمله، أوزِّعُ الأكواب على الحاضرات وأتبادلُ معهُنّ النّظرات والبسمات، أهنِّئُ سلمى بالشِّفاء، وأخبرها عن مدى سعادتي لمرآها تمشي، فتحمد الله وتقول:

- لله سبحانه وتعالى الفضلُ في هذا، ومِن بعده زوجي سالم، إذْ أنّه لم يألُ جهدًا كي يُعيدني لحالةٍ نفسيّةٍ أقرب ما تكونُ إلى نفسي القديمة قبل وفاة ولدي رحمهُ الله. أتعرفين ماذا كان يفعل؟ كان يأخذني فجرًا والنّاسُ نيام حاملًا إيّايَ على ظهرهِ حتّى يصل بِنَا المطافُ عند الأُرجوحة، فيُجلِسني عليها ويتأكّد من ثباتي، ثمّ

يدفعني إلى أنْ أطير بعيدًا عَنْه، في كلّ مرّةٍ كنتُ أبتعدُ لأقترب من السّماء، وروح غسّان التي فيها، وبتعدّد المرّات أنهيتُ حديثي كلّه معهُ واطمأننتُ بأنّه عند أرحم الرّاحمين وبأنّه يحجزُ لي مكانًا إلى جِواره في الجنّة، صحوتُ من حزني فجأة وانتفضتُ على ضعفي المرئيِّ مِنْهُ والمخفيّ كذلك، لأجد الإحساس يُخالِطُ أنسجةَ سيقاني، وإذْ بي أحرّكها، ومن بعدها أخطو خطواتي الأولى كطفلٍ يتعلّم المشي توًّا، ومع الوقت والعلاج الطبيعيّ صرتُ على هذه الحالة.

تقومُ بعدها من كرسيّها وتدورُ على قدميها في حالةِ نشوةٍ وسعادة، فنصفّق دونما شعور فرحًا بها، ونحمدُ الله أنّها استعادتْ فرحة قلبها بصحّةِ جسدٍ طال سكونهُ. فتسألُني سلمى على استحياء:

- أخبرينا عنكِ.. وكيفَ استطعتِ أن تكوني كما نراكِ؟

- أنا في أحسن حال، سيطول الحديثُ عنّي وعن الذي جرى لي، سأدعُ لأمّ محمّد مُهِمّةَ إخباركُنّ بها، في الُمختصر اليَوْم أنا متزوِّجة ولي أربعَة أبناء، أكبرُهم يدْعى مُنتصِر، لي مؤسّسة أعملُ عليها فهي ملكي بما تجلِبُه مِن دخل وأرباح، ولقد جئتُكُنّ اليَوْم كي أُدشِّن مشروعًا على تلك الأرضِ الُمباركة التي شهدت كسرَ قيودي ومخاوفي، فقد اشتريتُها منذُ فترة لهذا الغرضِ، ليَكُون لنساء القرية فيها متنفّسًا ومنها دخلًا ثابتًا، المشروعُ جاهز ينتظِرُ التنفيذ، وستسعدن به.

ترفعُ أمّ مُحَمَّدٍ صوتها بغيظٍ ومرارة:

– أيّةُ أرضٍ مباركة؟ أهي تلك التي تحوي شجرتنا حاملة الأُرجوحة؟ ما عاد الذي تقولين ممكنًا، فمنذُ أعوامٍ خلت، حاولتْ بنات القرية بزعامة (زهرة) الصّغيرة أَتذكرينها؟

– نعم أذكرها، مَن ذَا ينساها، فهي آخرُ شخصٍ رأيتهُ في القرية يوم تركتُها إلى المجهول.

– تلك الفتاة، قادتِ الصّبايا ممّن اعتدنَ الذّهاب معها لجلبِ الماء لكي يقُمن بفِعلتنا قديمًا بالترفيهِ عن أنفُسِنّ عند الأرجوحة، فقوبلت بثورةٍ عارمة من رجال القريةِ جميعًا، تحالفوا وقتها ضدَّهُنّ ببناءِ سورٍ عالٍ ومتينٍ يُحيطُها فيعزلهُنّ عنها فلا يستطِعنَ أن يقربنها أبدًا، وربّما تعلمين أنّه قبل هذا بسنين معدودة؛ توقّف بناتُنا عن جلبِ الماءِ من النّبع؛ فأصبح الماءُ يأتينا في الصّنابير دُونَ تعبٍ أو مشقّةٍ.

– ثورةٌ جديدة.. وبناءُ سورٍ عالٍ يمنعُكُنَّ من الوصول إليها!! أيوجدُ ظُلمٌ أكثر من هذا على وجه الأرض؟ ما خُلِقتْ تلك البُقعةُ من الأرض يومًا إلّا لنا، وكذلك ستبقى!

– لا تحلمي كثيرًا يا بُنيّتي، لقد سبق السّيفُ العزل، يبدو أنّهُ ما من أملٍ في تغيير قد تقومُ به محضُ نسوة، يعشنَ على الهامشِ، لِيَكُونَ للرّجل وحدَهُ حقّ اتّخاذ قراراتٍ مصيريّةٍ تمُسُّ حياتهُنّ بشكلٍ مباشر، يُحرِّكهُنّ كقطعِ الشّطرنج؛ لا يملِكن تحتَ قبضتِهِ المُميتةِ شيئًا أكثر من الانصياع!

- لا أحلم يا خالتي، أَنَسيتِ شرارتكِ الأولى، وفرحةً نبتت في زوايا النّفوسِ المُتعبة، وخوفًا وَأَدْتُهُ في نفسي بمساعدتِك يوم وُئدَ على الأُرجوحة، لا تُنكري علينا فعلًا سنقومُ به؛ كنتِ أنتِ مَن بذَرَ بذرتهُ الأولى.

تتنهّدُ أمّ محمد:

- حسنًا.. ما الذي تنوين فعلهُ يا ضُحَى؟ لقد وصلني أنّ أحدهم اشترى الأرض التي تقصدين، وأخشى أن يكون ما تفكّرين به مستحيلًا.

- أنا مَن اشتراها لأنفِّذ المشروع عليها! سترين بأمِّ عينك الحُلمَ يتحقّق يا خالة، حتمًا ستشكُركِ وتذكُرُنا الأجيال القادمة جيلًا وراء جيلٍ، فحاجتُنا للأُرجوحة هي إيمانٌ كامِلٌ غيرُ منقوصٍ أو مُستقطع، والمؤمنُ الحقّ لا يكفُر، وإنْ حاول الكُلّ ثنْيهُ فإرادتَهُ تكبُر بإيمانهِ ولا تصغُر.

قلتُها وفتحتُ الظّرف الذي بيدي، وتناولتُ منه ظرفًا آخر كان بداخِلِهِ يحوي مالًا، كتبتُ عليه سابقًا رسالتي لزوجة (حامد):

«إلى مَن ساندتني، ووقفت بِجانبي بكرَمِها وإنسانيّتها، يعجزُ الإنسانُ بداخلي عن شُكرك وتقديرِ فعلِك النّبيل معي، تقبّلي منّي هذه الهديّةُ البسيطةُ تقديرًا وعرفانًا منّي بجميلكِ.

لَكِ أن تطلبي مساعدتي في أيّ وقتٍ تحتاجين، وذلك بالاتّصال على الرّقم المدوّن أدناهُ، تحياتي وخالص تقديري لكِ».

ضحى

مددتُ يدي به، وأعطيتُهُ لأمّ محمد لكي توصِلهُ إليها لاحِقًا، استأذنتُ في الانصراف لأُنهي مهمّتي في القرية على أكمل وجهٍ قبل أن يتأخّر الوقت ويُداهمني الغروب ويُصبِح طريق العودة صعبًا في الظّلام. لتتساءل سامية:

- أيّ مهمّة تقصدين؟

- أما زال أبا العبد كبيرَ القرية والمسئولَ عن حلّ مشاكلها ورعايةِ شئونها؟

- نعم، مازال كذلك.

- إذًا.. سأطرُق بابهُ، وأخبرهُ بأمرِ شرائي للأرض ونيّتي في تدشين مشروعي هناك.

- كان الله في عونِك.

قالتْها سامية، وأمّنَت من خلفها أمّ محمد وسلمى، ودّعتُهُنّ بحرارةٍ على أنْ يجمعنا لقاءٌ في القريب العاجل، وغادرتُ شاحذةً زمامَ القوّةِ من إرادتي وإيماني بأنّ لمعةَ الحياةِ لا بُدَّ أن تعودَ ببريقِها لعيونِ زهراتِ البيوتِ وبساتينِها المثمرةِ، كي تجود بثمارِها أكثر، ويعُمّ خيرها رقعاتٍ شاسِعةٍ في نفوسِ مَن هُم حولها والمستظلّين بظلّها الحنونِ لا محالة. إذ بي أمام منزلِه ومنزل الحبيبة أمّ العبد، فطرقتُهُ وانتظرتُ الإجابة، إذْ بمريم العروس التي تركتُها صبيّة في

خدرِها؛ أصبحتْ سيِّدةً في أواخر العشرينيّات، يتناثرُ الجمالُ على مُحيّاها الفاتن وهيئتها المُهندمة، تُصيبُ سهامُ الفرح الذي تحملُهُ ثنايا قلبي بالسّعادة لتعرُّفِها عليّ وترحيبها بي ودعوتي للدّخول إلى داخل الدَّار، وبعد تبادل التّحايا الحارة والسؤال عن الأحوال انضمت إلينا أمّ العبد ترحّبُ بي بسعادةٍ غامرةٍ، وأثناء شُربنا للعصير الذي أحضرتهُ مريم وبعد أن عرِفوا جديدي وأجبتهم، سألتُ مريم عن حالها مع زوجها وإنْ كانت سعيدةً معه، أجابتني بالإيجاب فأردفتُ:

– الحمد لله، أذكر بأنّ تقديمَ موعد زواجك أقلقني، ولكنّي كنت مريضة جدًّا، وغادرت القرية قبل أن أعرف أسباب هذا التقديم.

– نعم، وبعد زواجي بأيّام سألتُ عنك وأخبروني بأنّك غادرتِ القرية، وأنّك لن تعودي، وأيقنت أنّ قمعًا تعرّض له كلانا، حتمًا أسبابُهُ واحدة. وعرفتُ بعدها سبب رحيلك.

– ولكنّي لم أعرف كيف مرّ تحدّ كهذا عليكِ في هذه السّن الصغيرة.

– لم يكنْ زواجي هيّنًا في بدايته، خاصّةً بأنّني كنت مُكرهةً عليه ولَم أشعر تجاه (رائدٍ) في حينه سوى بالنُّفور منه وعدم الرّغبة في البقاء معه في مكانٍ واحدٍ ولو لدقائق معدودة، فما بالُكِ بأن أُهدر عمري في داره، وتحت طوعِ كلمته، لكنّني مع الوقت اكتشفتُ مدى حبّه لي، وتفانيه في إسعادي والقيام على راحتي. صدّقي أو لا تصدِّقي بأنّ لك في هذه دورًا كبيرًا يا ضُحى!

- كيف هذا، يا مريم؟!!

- خروجك من القرية بهذه الطّريقة، زرع في نفس (رائدٍ) خوفًا من فقدي في حالةِ إساءته لي أو لحظة تهوُّرٍ قد تبدُرُ منه، فكان دائمَ القلق من رحيلي، شعرتُ بهذا دون أن يُخبرني، ولكنّ شعورهُ هذا ألقى بظلاله على معاملتهِ لي، فأذاقني دلالًا حلُمتُ به، وكلمةً مُستجابة لطالما تمنّيتُها أن تكون لي في بيتِ زوجي.

- الحمد لله، هكذا تكونُ الأخبارُ السّارة.

- الحمدُ لله هاأنذا بخيرٍ، أزورُ والديّ لأطمئن عليهما، فأنا وإخوتي نتبادلُ زيارتهما في أيّام الأسبوع لنقضي حاجيّاتهما التي يصعب عليهما فعلُها.

- سعيدة لأجلك يا مريم، كمْ أثلج صدري ما آلت إليه أحوالك، فأنت تستحقّين الأجمل من هذه الحياة.

- أشكرُك يا ضحى، نحن أسعدُ بزيارتك غير المتوقّعة هذا المساء، كم اشتقنا إليكِ.

- أتيتُ لأزوركم أوّلًا، وأقابل العمّ (أبا العبد) ثانيًا، فهل هو موجود لأُقابلهُ؟

- نعم، سأخبره عن رغبتك بلقائه وأعودُ إليكِ حالًا.

قالتها ودلفَت إلى الدّاخل، وفِي دقائق معدودة عادت وأبوها معها، بعد أنْ جلسَ وتبادلنا بعض الأحاديث القصيرة، مهّدتُ لِخبر

مشروعي عند الأرجوحة، بعرض الفكرة:

- عمّي أبا العبد، آتيكِ اليَوْم بصفتك كبيرَ القرية، وراعي شئونها؛ متحدِّثةً عن رغبتي المُلحّة- والتي بالتّأكيد تلقى قبولًا واسعًا لدى نسوة القرية- وهي اليَوْم طورُ التّنفيذ. فأتمنّى منك أن تسمعني بصدرٍ رحبٍ وتساعدني على تحقيقه دون اعتراضٍ من رجالِ القرية، وإن فعلوا لن يفيد هذه المرّة مطلقًا؛ فقد عزمت.

- أخبريني ما هو مشروعك أوّلًا كي أعرف إن كان باستطاعتي مساعدتك في هذا أم لا.

ناولتُهُ الظّرفَ الكبير الذي رافقني منذ بداية رحلتي إلى القرية، ففتحهُ ليجِد فيه عقد ملكيَّة، ليسأل:

- ما هذا؟

- هذا ببساطة عقدُ ملكيّة تلك الأرض التي صادرتموها من الفتيات والنساء في القرية، فقد اشتريتُها وقُمتُ بإجراءات تسجيلها ملكًا خالِصًا لي في أوراق الدّولة الرَّسميّة، فهي من التّاريخ المُدوَّنِ أمامكم باتت من حقّي وتحت تصرُّفي.

- وما المطلوب منّي اليوم، أن أقف بجانبك ضدّ رجال القرية؟ وأنتِ التي تركتِ زوجكِ وهربتِ غير آبهةٍ بأحد، وأهنتني شخصيًّا بعدم استشارتي وطلب الإصلاح بينكُما في حينه، ألم تأخذي بزمام الأمور وقتها وتعيشين اليوم في ترفٍ.. أنّك قد فعلتِ؟ ما شأنُك

بنا، عودي من حيث أتيتِ فلا حاجة لنسائنا بمشروعك هذا.

- الله وحده يعلمُ ما ألمَّ بي قبل أنْ أخطو خطوة كهذه يومها، فقد رأيتُ الموت بعيني وفقدتُ طفلي دون ذنبٍ ارتكبتُهُ. تقول: هربت..! نعم، هربت من جحيم كان يعصفُ بي فآثرتُ الرحيل دونما اشتباكٍ مع أحد، دون أن أُكلِّف أحدًا عناء مُحاولةٍ بائسة في إبقائي على قيد الموتِ واقفةً على قدمين أزرقينِ.. لم آتِ لأُقلِّب النّساءَ على أوضاعها كي تتمرّد عليها؛ بل سأفتح مشروعًا يُدرُّ عليهنَّ وعليكم ربحًا بما يتناسب مع القرية، وفِي ذات الوقت يكون لهُنّ وقتٌ مستقطعٌ للترفيه فيه عن أنفُسهِنّ تحت سقفٍ واحدٍ لا تراهُ عيونُكم ولا تنكشِفُ نساؤكم به على الأغراب.

- لم نمنعهنّ يومًا عن شَيْءٍ.

- إذًا.. نحن متّفقون في الفكرة، وبقي التنفيذ.

يرمُقني أبو العبد بعينِ الغيظِ ولا يُجيب!

- هيّا بِنَا نُنفِّذ على أرض الواقع ما نقول.

- ما الذي تقصدينه!؟

- سنذهب إلى الأُرجوحة ونفُكُّ أسرها سَوِيًّا.

- اذهبي.. مَن منعكِ؟!!

تهُبُّ مريم من مكانها فرِحةً تُصفِّق، تُقبِّلُ رأسَ أبيها شاكرة مستبشرة، وتدخل سريعًا لتلبس ملابسها لتنضمّ إلينا في مسيرتنا

نحو الأرجوحة، تعودُ باسمةً فتحضُنني قائلةً:

- أنـتِ لا تعلمين مدى شوقي وتلهُّفي للجلوسِ على الأرجوحةِ من جديد! شكرًا لك يا ضحى على كلّ شيء تقدّميه لنا، سنقفُ إلى جوارك من أجلنا نحن؛ ومن أجل أن يكتمل مشروعك ويكلّل بالنّجاح.

إذْ بأبي العبد يأمرُ مريم بالجلوس، وعدم الذّهاب معي فتُجيبُه باسمة، ودلالُ البنتِ يسبِقُ حيلتها:

- أطال الله في عمرك يا أبي، وأسعدكَ بسعادةٍ تلمسُها في روحِ ابنتك، أليست فرحتي تشعرُ قلبك بالرِّضا والرّاحة؟

يصمُت على غير رغبةٍ منهُ، ويرمُقُها بنظراتٍ مستهجِنةٍ لها، وهي تتقافزُ إلى جِواري كطفلةٍ ستحصُل على الحلوى التي تُحبّ مِن بائعها، وبائعُ الحلويّات مازال يمدُّ يدهُ في الدُّرجِ باحثًا عنها وهي لا تملِكُ عليها صبرًا!

نسلِّمُ على أهل الدَّار، ونبدأ رحلتنا عكس الغروب مرورًا ببيوتٍ أقمتُ فيها زمنًا؛ علّني ألقى بعض الأحبّةِ فأتعرّفَ إليهنّ، وأُعيدُ ذكرى الأيّام الخوالي، لم أتوقّع بأنّ مجرّد تواجدي في الحارات وبين الأزقةِ كان يسترعي- دون قصدٍ منّي- انتباهَ الجميع، ممّن عرفت ومَن لم أعرف يومًا، فجميعُ النِّسوةِ يتساءلن همسًا بينهُنّ عن هويّتي وإن كُنتُ مذيعةً في التِّلفاز أم سيّدة أعمالٍ مُهمّة، منهُنّ

مَن كُنّ خارج المنزل يخبزنَ ومنهُنّ مَن يجلِسنَ للتّطريز وحياكة الكروشيه، وبعضُهُنّ يشربن الشّاي أو القهوة داخِل المنازل مُطلّاتٍ على مظاهرِ الحياة خارجهُ؛ علّها تروِّحُ عنهُنّ عناء ساعاتِ العمل الطّويلة في أنحاء المنزل، يقتُلهُنَّ الفضولُ لِمعرفة سبب تواجدي وهُويّتي الغامضة.

مررنا بمنزل أمّ فايز، فسألتُ مريم عن حالها؛ مازلت أذكُرُ أيامًا جميلةً جمعتنا معًا، وكيف كانت تفيضُ عليّ بدعواتها من أجل أنْ يرزقني الله الكثيرَ من الأبناء، حزنتُ حين أخبرتني (مريمُ) بأنّها طريحة الفراش بعد أنْ ألمّ بها مرضٌ أقعدها في السّريرِ، ويقومُ أبناؤها على رعايتها وتدبُّر متطلَّباتها الأساسيةِ، فقرّرتُ طرق بابها والاطمئنانَ عليها بصُحبةِ مريم، فتحتْ لنا الباب ابنتُها فاستأذنّاها بزيارة أمّ فايز لبعض الوقت، رحّبت بزيارتنا فوَلجنا للغرفةِ التي أشارت إليها، إذ بأمّ فايز تجلِسُ في سريرها ظهرها يُلامسُ ظهرَه، وساقاها ممدودتانِ تحتَ الغِطاءِ، تعلو فخذها وسادةٌ وضعتها لتسندَ فوقَها المُصحف وهي تتلو آياتهِ وتتدبّرها، نظّارةُ القراءةِ لازمت وجهَها كسمةٍ طرأتْ على معظم مَن شاهدتُ من السيّدات بعُمر أمّ مُحَمَّدٍ، تلُفُّ شعرها بغطاءِ الرّأسِ، وترحلُ خشوعًا إلى الله، ما شعرت بِنَا إلّا ونحنْ إلى جوار السّريرِ نُنصِتُ لقراءتها وهي ترتِّلُ قول الله تعالى: {إنْ ينصُركم الله فلا غالب لكم}، فتتوقّف فجأةً فنعرِفُ بأنّها

قد لاحظتْ وجودنا عند طرفِ سريرِها، لتُمعِنَ النَّظر فينا، من ثمّ تُعيدُ نظرها إلى المُصحفِ لتُكمل الآية وتنتهي بغلق المُصحفِ وتقبيلهِ وقولها «صدق الله العظيم»، تخلعُ نّظارتها وتتساءل إن كُنتُ ضحى، فأُجيبها بالإيجاب، لتتهلّل أساريرُها وتسعد بأخباري جُلّها، وتشعر بحماسةٍ بالغة حين علمت بخبر إنجابي وزواجي، فتقول:

- ما ذكرتُك في أيّ وقت مضى إلّا ودعوتُ لك، فالله قريب يُجيب الدعاء، هكذا أؤمن.

أؤمِّن على كلماتها وأدعو لها بالشّفاء والحفظ، يُطرقُ الباب وتدخُل شابّةٌ بدَتْ في الثالثة والعشرين من عمرها، ملامح الشّقاوة تتقافزُ على محُيّاها فهي تدخل الغُرفة كَنسمةٍ رقيقةٍ فتُحيلُ صمتنا الموزون بدعواتٍ تلهجُ في القلب لبعضنا الآخر، إلى صمتٍ بانبهارٍ من قدرة شابّةٍ مثلها على اختلاق جوّ مفعم بالحياة والبهجة في لمْح البصر، حيثُ قَالَتْ تُحدِّثُ أمّ فايز:

- جدّتي الجميلة، كيف حالُك اليَوْم!؟ أراكِ كالعروسِ جميلة وحيِّية.

- زهرتي حبيبتي لا تُبالغي، لا ينقُصني سوى أن تشبهيني بِبدر البدورِ!

نضحك جميعًا، فأتذكّر ذلك الوجه الطّفوليّ الممتلئ بالبراءة والسّعادة على مسمعِ الاسم، إنّها زهرة، تلك الصّغيرة الشقيّةُ خليفتُنا في حمل الجِرار، محُبّة الأرجوحة والحياة، فأحدِّثُ نفسي:

هل يا ترى تذكرني تلك المشاكسة؟

تسلم عليّ وعلامات التّعجُّبِ تعلو وجهها، وبعد أن عرّفَتها جدّتها بي، وبأنّي كنتُ أنتمي لهذه القرية ولكنّي تركتُها منذ فترة طويلة.

في آخر الزّيارة، سألتُها إنْ كانت تشتاقُ لركوب الأُرجوحة، فأجابتني:

- جدًّا يا خالة، سامح الله مَن كان سببًا في منعنا عنها.

- تعالي معي لكي نذهب إليها.

- كيف هذا، لا نستطيع فكلّ الأبواب موصدةٌ إليها.

- بل نستطيع! هيّا بنا، سنذهب سَوِيًّا إلى هناك مع مريم.

- لا أريدُ خيبةَ أملٍ جديدة، فاكتفيتُ بدفنِ القديمةِ إلى أجلٍ غير مسمى.

- هيّا بِنَا إليها، لا يحتاجُ الأمرُ أكثر من الإقدام والمُواجهة.

ودَّعنا أمّ فايز داعين لها بالشّفاء العاجل، فأمطرتنا بدعواتها الجميلة بالتّوفيق والنّجاح، وبدأنا نسلُكَ الطّريقَ إلى الأرجوحة لنصنع التغيير الذي لطالما حلُمنا به، وها نَحْنُ نُغبِّرُ الطّريق تحتِ أقدامِنا إلى معشوقتنا الحبيسة. هاأنذا أقودُ النِّسوة نحوها عبورًا بحاراتِ القريةِ وأزقّتها، أُسلِّمُ على من عرفتُ من نسائها، وتُعرّفُني زهرة على صديقاتِها، وتدعوهُنّ للمسيرِ معنا فيستجيبوا بحماسةٍ بالغةٍ كُلَّما ذُكِرتْ الأرجوحة.

مررتُ بدارِ أمّ ماهرٍ وأولادها؛ ألقيتُ عليه نظرةَ فضولٍ من بعيدٍ، إذ بماهرٍ يجلِسُ أمامَ البابِ على الكُرسيِّ مطأطأ الرّأسِ شاردَ

الذّهنِ، وحين علا صوتُ الجلبةِ التي أحدَثَها مرورُنا أفواجًا بالجوار، رفعَ رأسَه فرآني ولمستْ عينهُ عيني بنظرةٍ خاطفةٍ فأغمضتُ جفنيّ كي تتطهّر من لمسةِ عينهِ الآثمة، فتحتُهما على الأُفقِ هناك، وحرّمتُ على نفسي نظرةً تسقِطُني في الإثمِ من جديد، لكنّ طرف عيني خانتِ العقل الذي حكم عليها بهذا، فتابعتْ ذاكَ الذي ظلم لترى الزّلازِلَ تجتاحُ جسدهُ وهو ينتفضُ من محلِّه ويقفُ مشدوهًا لثوانٍ ناظِرًا إليَّ على هيئتي الجديدة لأعملَ جاهدةً على رسمِ بسمةِ فرحٍ على شفاهي في حينهِ، كي يلمحَ قوسَ النّصرِ وهو يزيّن وجهي، ويبدو أَنَّهُ فعلَ فكالعاصفةِ غادر محلّهُ هروبًا إلى الدارِ لنسمعَ صوتَ إغلاق بابِهِ بقوةٍ في ثوانٍ معدوداتٍ، كالفراشاتِ ساعتها أطيرُ في زهوٍ ودلال.

قائدةٌ في الصُّفوفِ الأولى؛ أترُك الهزيمةِ تسقُطُ هناك خلفي لتُصاحبَ الماضي وتختفي معهُ دون ندمٍ يُخالِجُ قلوبَنا على قصاصٍ عادلٍ أقمناهُ فيها. فتياتٌ كُثر يتتبّعن خطوي على إثرِ نداءٍ كانت (زهرة) تولّتْ أمرهُ على مَن عرَفتْ من صديقاتها، ولَم تسعفني الأيام أن أتعرّفَ إليهنّ في الغياب، كسِرب من الحمامات البيضِ هُنّ؛ يتطلّعنَ كيما ترِفّ في الهواء أجنِحتهُنّ لبعضِ الوقتِ، تُغريهِنَّ أحلامٌ بسيطة يسعونَ خلفها بعزيمةٍ وجدٍّ، بعد أن سئمنَ كثرة الحواجِز وتعدُّدِ الأقفاص، مرئيٌّ بعضها صلبٌ لا يتزحزح، وبعضُها الآخر

خفيّ يتسرّبُ إلى الوجدانِ، فننقادَ وراءهُ دون وعيٍ كي نُحقِّقَ رغبتَهُ فينا، باستسلامٍ مهينٍ لنفسٍ ما خلقَها الله إلّا حُرّةً.

ها نَحْنُ نسيرُ عبر الطّريقِ المؤدّي إلى الأُرجوحة، لكي نصِلَ إلى أرضِنا التي نحلُمُ بالوقوف عليها وأرجوحتنا التي نتمنّى ركوبها، إذْ بالسّورِ أمامَ عيوننا على البُعد كحصنٍ حصينٍ قبيحِ المظهر، تندهِشُ النِّسوةُ والفتياتُ على مرآهُ، ويدبُّ الخوفُ في قلوبهِنّ، حتّى يكادُ خطوُهُنَّ يتباطأ، أو أَنَّهُ حقّا فعل لضخامتِه ومنعتِهِ، لوْلا ثباتُ خطوي إلى الأُرجوحةِ غير مُباليةٍ بأسوارٍ حجَزتْها عنَّا، يتضاءلُ في عيوننا ذَا المارِدُ مع كلّ خطوةٍ تُقرِّبُنا إليهِ، نُسرِعُ الخطى فرحًا؛ فيتقزَّمُ حجمُهُ أكثر فأكثر أمامنا، نبدأ بالجري نحو أُرجوحتِنا تسبقُنا جريًا إليها أرواحنا، فيخسِفُ اللهُ بتلك الحواجِز الأرض، وكأنّها يومًا لم تكُن، وتبْرُزُ تلك المُعلّقةُ على حبالِ الأمل، الصَّامدةُ رغمَ الرِّيح والأعاصيرِ المتتاليةِ المُحاولةِ هدمَها، تلك التي يصبو إليها الجميع، كي تُغيِّرَ أحوالهم إلى الأحسن.

تمّت بحمد الله وفضله..

ريحانة رفيق - القاهرة

فهرس المحتويات